14

اتفاقية سيناء الثانية والطريق إلى السلام

«إعادة تقويم»

كان شهـر آذار مـن عام 1975 شهر سوء بالنسبة للسياسة الخارجيـة الأمريكية: فقد كانت العلاقات مع الاتحاد السوفييتي تسلك طريقاً لولبياً نحو الأسفل، ودبلوماسية الشرق الأوسط، التي كانت تمثل حتى الآن قصة نجاح، تقف أمام طريق مسدود. وكان انهيار العقدين من التضحية الأمريكية والجهد الأمريكي فـي الهنـد الصينية قد أناخ بكلكله على كل شيء. وحتى عندما كانت أذهاننا مركزة على الشرق الأوسط، كانت قلوبنا ومشاعرنا بالكرب في جنوب شرقي آسيا.

كأنّ الآلهـة كانت تريد أن تؤكد مجرد مدى الغضب الذي كان يستبد بها، فقد قتل الملك فيصل، ملك المملكـة العربيـة السعودية في 25 آذار، 1975، بعد يومين من عودتي إلـى واشنطن. وكانت ضربة قاسية أخـرى للسياسة الخارجية الأمريكية. فقد جاءت وفاة فيصل، على وجه الخصوص، عندما كانت الحاجة أشد ما يمكن أن تكون إلى حكمته التي أفصح عنها وإلى حدة ذهنه البارزة، نكسة هائلة.

وقـد انتهى بنا انهيار الجولـة المكوكية في آذار إلى أن نواجه أشد أزمة في الشرق الأوسط منذ حرب يـوم كيبور. فمن الناحية الأولى لم يكن اهتمـام أمريكا القومي الأساسي قد تغير. وكنا ما نزال في حاجة إلـى عزل عملية السلام عن مجموعة مؤتلفة من الضغوط السوفييتية والأوروبية والعربية. وقد ظل دعمنا للقـادة العـرب المعتدلين، ولا سيما أنور السادات، محورياً. ولئن ثبت أن مؤتمر جنيف لابد منه فقد ظللنا نزعـاً إلـى صياغته. وإذا كان مايـزال هناك خطوة منفصلـة ممكنة عملياً فسوف نكـون منفتحين عليها وسوف تظل المصلحة الأمريكية القومية تخدمها، على أفضل وجه، بدبلوماسية تؤدي فيها كل الطرق إلى واشنطـن مع كـون إسرائيل أقوى من أن تهزم، والولايات المتحدة وحدها في موقع مكنها من الوصول إلى حل وسط.

ولكـن لـم يكن هنـاك تجاهل لحقيقة أن مجلس الوزراء الإسرائيلـي قد تخلى، بعد أشهر من التسويف والمماطلـة والغموض، عما كنـا نعتقد أنـه استراتيجية مشتركة، وكنـا ندرك، من الناحيـة الذهنية، أن تكتيكاتهـم التـي تجعل المـرء يصاب بالجنون، والتـي أفسدت الجولـة المكوكية، إنما كانـت التعبير عن

الكابوس الذي يتناب إسرائيل، ومؤداه أن عملية السلام تنطوي، بحكم تصميمها أو نتيجة للإهمال أو خطأ ناتج عن الإهمال، على احتمال انتزاع التنازل بعد التنازل إلى أن يصبح وجود إسرائيل نفسها عرضةً للخطر وأنه لم يكن لها بد أن تساوم على أجزاء تافهة متروكة. ولم تكن لدينا رغبة في بث الشجاعة في نفوس القادة العرب المتطرفين بما فيه الكفاية (والمدعومين من قبل الاتحاد السوفييتي بإحداث صدع علني مع إسرائيل. وفي ذلك الشهر الذي تميز بانهيار الأمل كان ينتابني أنا الشبح الذي يوحي إليَّ أنه منَ الممكن أن أكونّ مرة أخرى، مع أفضل النوايا، القوة الدافعة وراء عملية سلام أخرى سوف تنتهي بانهيار حليف.

وعلى كل حال فعندما تم قول كل شيء وتم فعله كانت التصرفات الإسرائيلية قد فرضت علينا مجازفة تتصل بكل استراتيجيتنا الخاصة بالشرق الأوسط، مما جعل إعادة التقويم أمراً لامناص منه. وكان مما يبعث على السخرية أن هذا المصطلح كان قد دخل إطار المناقشة العلنية نتيجة لواحد من التسربات الإسرائيلية التي كانت تبدو غير ممكنة الاحتواء.

وفي المراحل الأخيرة من الجولة المكوكية كان فورد قد أرسل رسالة سرية إلى رابين حذره فيها من أن المفاوضات إذا انتهت إلى الإخفاق فسوف تضطر الولايات المتحدة إلى القيام بعملية «إعادة تقويم» لنهجها الدبلوماسي، وهو ما قصد به النظر في العودة إلى مؤتمر جنيف المتعدد الأطراف. وشاطر رابين مجلس وزرائه الرسالة، ربما في محاولة لحمل زملائه على تعديل موقفهم. وحدث التسرب بينما كنت أنا في طريقي إلى الوطن. وحين توقفت في مطار هيثرو لإطلاع وزير الخارجية البريطاني جيمس كالاهان، تلقيت اتصالاً هاتفياً بصوت غاضبٍ من الرئيس الذي كان قد سمع لتوه رسالة موصوفة بالتلفاز ولم يكن تلقى بعد جواباً عنها.

وعندما أطلع فورد قيادة الكونغرس في 24 آذار، أي في الصباح الذي أعقب عودتي كرر، بجرأة وتحدٍّ مصطلح «إعادة التقويم» وأصدر تعليماته إلى سكرتيره الصحفي، رون نيسن لإعادة تأكيد المصطلح أثناء نشرته الصحفية المنتظمة الخاصة بالبيت الأبيض.

لقد أُعلنت إعادة التقويم في طور مشوب بالتوتر من أطوار العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية. فعلى المستوى الأول قررت حقيقةً بدهية وهي أنه مهما كانت اللياقة المميزة فإن إخفاق الجولة المكوكية ألزمنا بإلقاء نظرة أخرى على دبلوماسيتنا الخاصة بالشرق الأوسط. وفي الوقت ذاته كان من الممكن أن يُقرأ المصطلح بحيث يتضمن أن علاقتنا الأساسية مع إسرائيل جديرة بالمراجعة، الأمر الذي لم يكن مقصدنا. ثم إن رفضنا توجيه اللوم إلى السادات لإخفاق الجولة المكوكية زاد من حجم بواعث القلق الإسرائيلية، إذ إنه كان يُمثل تزحزحاً عن الممارسة السابقة التي كنا فيها نقف إلى جانب إسرائيل بصورة آلية على الدوام.

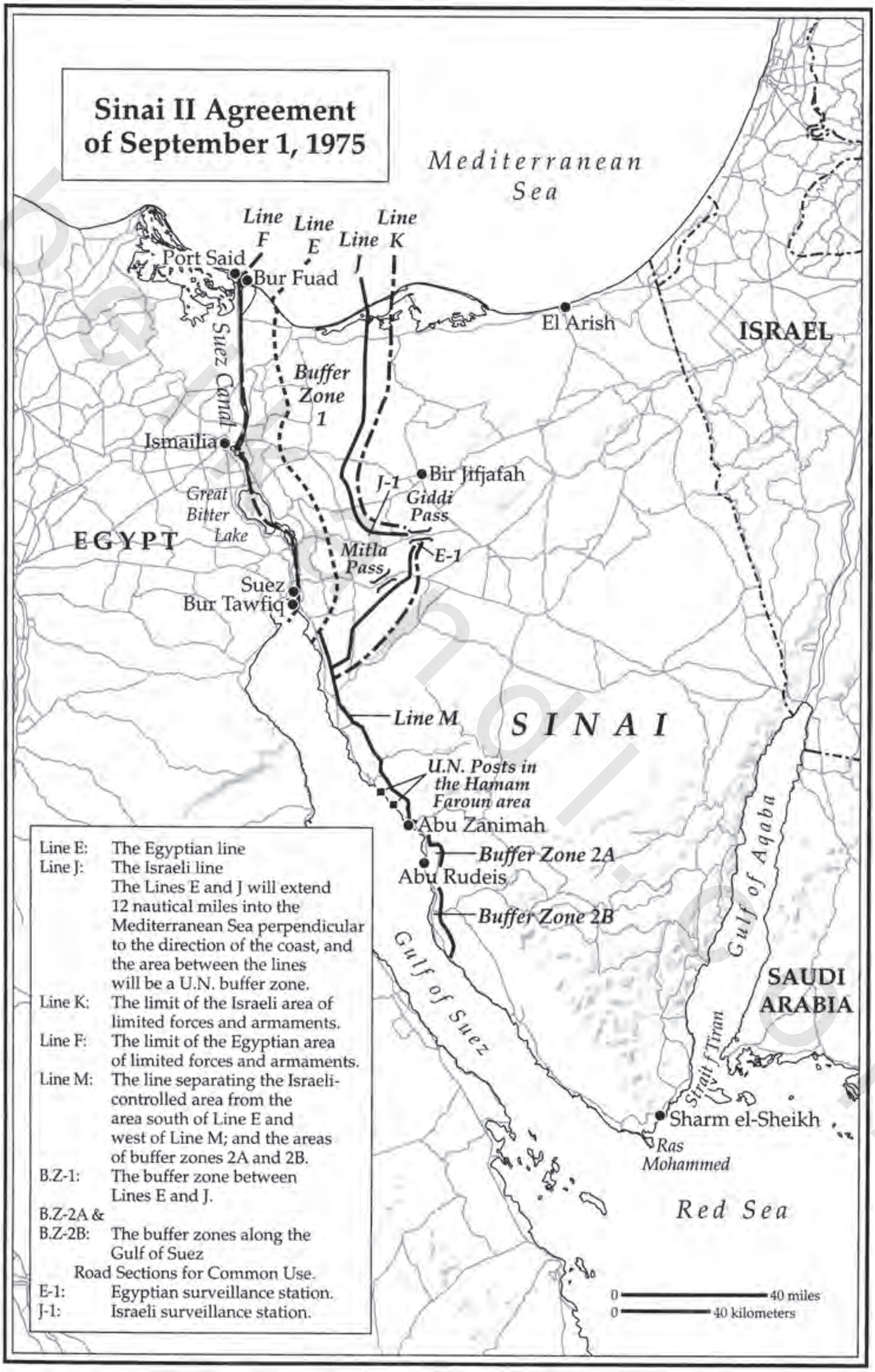

obeikandl.com

وكان فـورد يريـد أن يأتي إلى قاعـدة أندروز الخاصة بالقـوات الجوية في مساء الأحـد، في 23 آذار ليرحـب بعودتـي إلى واشنطن، إظهاراً لدعمـه القوي لسلوكي في إدارة المفاوضـات. وثنيت عزمه لأنه لا ينبغي للرؤساء أن يربطوا أنفسهم بالإخفاق إذا أمكن تجنب ذلك مهما تكن أسباب الإخفاق على كل حال. فما من شيء كان ليمنع فورد من السلام عليَّ فوق المرج الأخضر الجنوبي في البيت الأبيض، حيث حطت طائرتي العمودية على الأرض، وقال الرئيس أمام بطارية من كاميرات التلفاز، مقرَّراً: أنا أعلم أنك بذلت أقصـى جهدك، وكان من سـوء الحظ... وأنه لما يدخل في إطار المصلحـة القومية، كما يدخل في إطار المصلحـة العالميـة أن نفعل كل ما نستطيع مع التأكيد على السلام. و على الرغم من أننا لم نحقق كل ما كنـا نرغـب فيه ـ ونأمل أن يكون ذلك على أساس مؤقت ـ فأنـا أواصل تفاؤلي الذي يفيد أن الحكم الجيد والقـرار الحكيم من جانب كل الأطـراف سوف يسفر عن الهدف النهائي، وهـو هدف السلام في الشرق الأوسـط وتفرعاته على نطاق العالـم بأسره. وبعد أيام قلائل روى فورد لصديقـه القديم من ميتشيغان، ماكس فيشر، الذي أدى خدمات التابعين الذين يقومـون بالأعمال الشاقة، بحكم كونه عامل ارتباط غير رسمي بين البيت الأبيض وبين قيادة اليهود الأمريكيين في عهد كل من نيكسون وفورد، ما يلي:

لا أظـن أننـي شعـرت في أي يوم من الأيام بخيبة أمل كهذه التي شعـرت بها عندما سمعت أن هنري عائدٌ من دون تسوية. وكان الوضع متردياً مثلما كان وضعي أنا في هذا المكتب. وكان الانطباع الذي أحمله بعـد لقاءاتـي مع آلون مرتين ومع رابين ومع غولـدا، إلخ، هو أننا كنا نعمل في ارتبـاط يبلغ من وثاقته أن الأشيـاء التي تجري المراهنة عليهـا، إذا ما وضعت على المائدة فسيعلمون مدى عمق تأثيرها على مكانة الولايـات المتحدة. أمـا فورد فلم تكن المسألة بالنسبة إليه مسألة اختـلاف كبير بمقدار ما كانت مسألة حنث بالوعد المبذول لصديق. وشرح لمجلس الأمن القومي في 28 آذار قائلاً:

لقـد كنت أعمل منذ توليت وظيفتي، مع إسرائيل محـاولاً التوصل إلى تسوية و كنا نعمل يحدونا إيمان راسخ، وأنا أفترض أنهم كانوا يفعلون الشيء ذاته أيضاً ولكن عندما طرحت الأشياء التي تجري المراهنة عليهـا، علـى المائدة، أظهروا نقصاً في المرونة كانت تمس الحاجة إليه مـن أجل الوصول إلى اتفاق وأنا معجب بهم (يعني الإسرائيليين) وأحترمهم ولم يحدث أبداً أن تعرضت لخيبة أمل كهذه التي عرضت لي حيـن رأيـت أناساً أحترمهم غير قادرين على أن يروا أننا نحاول أن نفعـل شيئاً لمصلحتهم أو لمصلحتنا علـى حدٍ سواء. ولكن التزامنا يتجه نحو الولايات المتحدة فـي التحليل النهائي. وأما وزير الدفاع جيمس شليزنغر الذي يعدُ في العادة بالغ الاستعداد للتنقيب عن الأخطاء والعيوب في إدارتي للشؤون الدبلوماسية، فقد ساند فورد في الاجتماع الذي عقده مجلس الأمن القومي:

لا نستطيـع أن نسمـح لإسرائيـل أن تواصل علاقتها معنـا كأن ليس هناك مشكلات ولا نستطيع أن ندعهـم يستنتجون أنهم يستطيعون أن يفسدوا خطط الولايات المتحدة وترتيباتها ولكن الإدارة الأمريكية

لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال ذلك. أما التوازن العسكري من جهة النظر الإسرائيلية فكان أفضل كثيراً مما كان عليه في المرة الأخيرة التي التقينا فيها (في مجلس الأمن القومي) لمناقشة هذه المشكلة وكنا نقدر كمية الأسلحة السوفييتية التي تلقتها مصر فوق قدرها إلى حد بعيد وبذلك يكون التوازن لصالح إسرائيل بدرجة معقولة ولا حاجة بنا إلى أن ينتابنا القلق بصدد تحفظنا وعُزلتنا، وبعد سنوات كان فورد ما يزال مغتاظاً من جراء حوادث ربيع عام 1975. وقد كتب يقول في مذكراته: لقد ظل الإسرائيليون يعرقلون الأمور بالمواربة والخداع. وأدت تكتيكاتهم إلى إحباط المصريين وانتهت بي إلى أن يجن جنوني وكنا قد تلقينا أنا وهنري تطمينات مؤكدة من رابين تفيد أن هناك خطاً يمكن رسمه وسيكون مقبولاً لدى إسرائيل ولكن رابين بدا الآن خائفاً من استجابة مجلس وزرائه وذلك أنه ليس من شأنه ـ أو لن يستطيع ـ أن يتخلى عن التزامات كان قد أخذها على عاتقه[1].

وخرجت استثارة الرئيس إلى السطح عندما احتجت إسرائيل على بيان لفورد كان يقصد به فعلياً إلى تطمين إسرائيل، إذ كان فورد قد قال: إن الولايات المتحدة كانت تدعم على الدوام بقاء إسرائيل وسوف تواصل هذا العمل. وإلى هنا كان البيان المقدس المألوف يصادق دائماً على أمن إسرائيل، واعتُبر هذا في الاحتجاج الإسرائيلي مما يمثل بداية لها دلالتها ويعد أعلى من مجرد «البقاء» وعلى الرغم من أن الاعتراض كان ينطوي على ميزة دلالية فإن الحكومة الإسرائيلية لم تختر اللحظة الأفضل لتحدي المعارضة المباشرة من قبل الرئيس.

أما تعليق فورد فكان في الحقيقة مرتجلاً، ولم يكنُ يُقصَد به الإيحاء بوجود أي تغيير في السياسة الأمريكية، غير أن انهيار الجولة المكوكية قد تركه في مزاج غير مناسب من أجل ما كان يراه غامضاً وسرياً. وذلك لانفجار غضب غير مألوف من جانب فورد، في اجتماع لمجلس الأمن القومي، في الخامس عشر من أيار:

لقد استعملت كلمتي «البقاء» و«الأمن» بحيث «لا يمكن إحلال إحداهما محل الأخرى، وبحيث تكون كلٌّ منها مرادفة للأخرى غير أنهم هم الذين اختاروا الآن إنشاء تمييز ولست أنا الذي اختار هذا، ولذلك فسوف أستعمل كلمة «البقاء» ولا أريد أن يقوم أحد بإعادة الصياغة أو استبعاد ما قلته بتأويل منه، وظل الرئيس صلباً عنيداً حتى بعد أن أشار شليزنغر ـ إشارة صحيحة ـ إلى أنه كان هناك في الحقيقة درجة ضئيلة من الفرق. ورد فورد قائلاً:

نريد أن نلتزم بكلمة البقاء دون غيرها... لقد جعلوا منها قضية ولن نتراجع.

استئناف سياسة الخطوة خطوة

في هذه الفترة التي تحطم القلب، عندما كان يترتب علينا أن نتدبر أمر الانهيار المتزامن للهند الصينية وإنقاذ جهدنا في الشرق الأوسط انتهينا إلى واقعة جوهرية من وقائع العلاقات الأمريكية

الإسرائيلية: ذلك أن الأمريكيين كانوا يرون أن التغيرات الإقليمية التي تقاومها إسرائيل مسألة تافهة غير ذات أهمية. أما إسرائيل التي كانت منهمكة في كفاحٍ من أجل وجودها ذاته فكانت تواجه صعوبة في فهم المقياس المدرج الـذي تقيس به الدولة العظمى متطلبات البقاء (ولم يتغيـر هذا التباعد و التنافر حتى لحظة هذه الكتابة) على أن الروح الرفاقية السهلة والإعلانات المتواترة للصداقة لم يكن في وسعهما أن يلقيـا بظلالهمـا على حقيقة أن الجانبين كانت لكل منهما طريقته في إثارة أعصاب الآخر. أما إسرائيل فكانـت تستـاء من طريقة الأمريكيـين الشهمة السخية التي سوف يتخلون بها عـن أراضٍ ينظر إليها على أنها جزءٌ من هامش بقائها وكانت طرق الإسرائيليين في المفاوضة التي كانت قلما تؤمن بطريقة الأخذ و العطاء وتعامل كل تنازل على أنه اغتصاب، تبعث لدى الأمريكيين إحساساً مزعجاً.

لقد كنا حتى الآن نسعى إلى التغلب على هذه الأشكال من التوتر بمجرد القوة الدافعة والزخم. و لكن حيـن لاح فـي الأفق طريـق مسدود أخذ يتبين لنـا أن الضغوط القصوى التي كانـت تتوفر لكل حليف ضد صاحبـه كانـت غير متناسبة من أجـل القضية المطروحة أمامهم، فمن أجـل أميال قلائل في الصحراء تبعد مئة ميل عن حدودها كانت إسرائيل تهدد بإلغاء الإسهام الأمريكي في الشرق الأوسط، ذلك الإسهام الذي كان يتم ادخاره بجهدٍ جهيد على مدى ما يقارب خمسة أعوام. وللحيلولة دون حدوث هذا النـاتج كان ملاذنـا الأخيـر أن نطرح حلنا المفضل و نفرضه على إسرائيل تحت وطأة التهديد بالضغط الاقتصادي و العزلة السياسية، مهددين بذلك وجودها ذاته.

وعلـى الرغم مـن أن عدداً من الإدارات الأمريكيـة تقدمت شيئاً فشيئاً نحو هـذه الاستراتيجية، فقد كانـت تتراجـع في النهايـة، لأن قادة أمريـكا كان يتبين لهم في النهايـة حين يواجههم مثـل هذا التيار، أن الطـرح العلنـي لموقف شامل مـن قبل الولايات المتحدة يمكـن أن يتحول إلى شَـرَك. وذلك أن الدول العربية يمكن أن تتخلى عن الدبلوماسية مع إسرائيل وتركز كل ضغوطها على الولايات المتحدة لاستخلاص شروط أفضل من هذا الطرح. أما إسرائيل فيمكنها، إما أن تصرّ بعناد وإما أن تجازف بكل شيء في رمية واحدة في النرد. وكان من الممكن أن تواجهنا حرب، أو تفكك أو انحلال لحليف من حلفائنا.

في أسابيع انهيار الهند الصينية دفعتني هذه الاعتبارات إلى عقد ميثاق مع نفسي. فإذا كان لابد من التخلـي عـن نهج الخطوة -خطوة، وكان علـى الولايات المتحدة أن تضع شروطاً مـن أجل تسوية، فسوف أستقيل. وكان التباين بين تصور إسرائيل لهامش بقائها وتصورنا نحن لهذا الهامش، خليقاً أن يشكل هوَّةً يصعب تجاوزها. وإذا كانت لنا الغلبة فسوف نقصم ظهر إسرائيل من الوجهة السيكولوجية، وإذا أخفقنا فسنكـون قد حكمنا على دورنا في الشرق الأوسط بالإخفـاق. وقبل عامين كنا قد فرضنا، تقريباً تسوية، فـي فيتنـام كنا نعتقد، بكل الإيمان العميق والآمال العريضة، أنها ستعود بالسلام على بلاد معذبة، وكانت هـذه التسويـة الآن في طريقها إلى الانحلال، وكان عليّ أن أتلافـى الكارثة. ولن أكون قادراً على النهوض

بأعبـاء المسؤولية من أجل مأساة أخرى كهذه ولا سيما تجـاه حليف يرتبط برابطة وثيقة بمصير أسرتي في الهولوكوست.

و لمّـا كان علـى السـادات أن يفرغ من كل النقاط المحوريـة فقد أعطانا مجالاً للمنـاورة. ولما كانت المواجهة مع الولايات المتحدة خليقة أن تضعه تحت رحمة السوفييت / كما يمكن للمجابهة مع إسرائيل، فـي النهايـة، أن تهـدد علاقته مـع الولايات المتحـدة فقد اتخذ ثلاث خطـوات لتدعيم صـورة الاعتدال المصري التي تم تكوينها بعناية. وخلال أسبوع مضى على انهيار الجولة المكوكية، وأثناء اجتماع بمناسبة جنـازة الملك فيصـل. أخبر السادات نائـب الرئيس، نيلسـون روكفلر، أنه مازال، علـى الرغم من خيبة أملـه، يواصل الاعتماد على الولايات المتحدة لاجتياز الطريق إلى السلام. وبُعَيْد ذلك أعلن السادات، في خطـاب لـه في برلمانه، في29 آذار، وهو يتحدث حديثاً يشوبه الحـزن أكثر مما يشوبه الغضب، عن عودة جثـث 39 مـن الجنود الإسرائيليـين المفقودين الذين كانـت إسرائيل تحاول استعـادة رفاتهم منذ نهاية الحـرب و فـي الوقت ذاته أعلن أنه سيعيد، على الرغم من تعليـق المفاوضات فتح قناة السويس، المغلقة منـذ حرب 1967/ في الخامس من حزيـران، ولكي يجعل أولوياته واضحة كل الوضوح، طلب أن يكون أول مركـب أجنبـي يعبر القناة سفينة أمريكية ضخمة، سوف يتم إدخالهـا في موكب الافتتاح المصري وفي هـذه الأثناء كانت قد انقضـت فترة انتداب قوات الأمم المتحدة، البالغة سـتـة أشهر للفصل بين القوات الإسرائيليـة والقـوات المصرية في سيناء، وطبقاً لمبادئ الأمم المتحـدة كانت تمس الحاجة إلى تجديد الاتفاقية مع مصر، واقترح السادات التمديد مدة ثلاثة أشهر ـ مما أنشأ موعداً نهائياً تقريباً لإعادة البدء فـي المفاوضات وقررنا أن نـدع إلى الأطرف المعنية مسألة القيام بالتحرك الأول نحو العودة إلى الشروع فـي المفاوضات. ولأن مصر وإسرائيل تفترضان أننا نريد الاتفـاق أكثر مما تريدانه هما فسوف تناوران لدفـع الولايـات المتحدة إلى تحمل عبء القرارات الضرورية وكنا فـي حاجة إلى إرغام الأطراف المعنية على أن تلزم نفسها قبل أن نلزم أنفسنا وأصبحت إعادة التقويم استراتيجية من أجل أداء هذا.

وفي 29 آذار أصدرنا تعليماتنا إلى السفراء الأمريكيين في إسرائيل ومصر وسورية و الأردن بالعودة إلـى واشنطن لمراجعة السياسة، وطلب إلى كل واحد منهـم أن يطرح ثلاثة أسئلة على الحكومة التي كان معتمـداً لديهـا قبل المغادرة: كيف يقّيم محاوره حالة المناورة وهل مازالت الاتفاقية المؤقتة ممكنة، وإذا كانـت كذلك، فبأية شـروط (و بالنظر إلى معارضة إسرائيل الصلبة العنيـدة لاتفاقية مؤقتة أخرى حول مرتفعـات الجولان، تم حذف هذا السـؤال في حالة سورية) وإذا كان التفضيل يتجه نحو عودة إلى جنيف فكيف ينبغي تنظيم هذا؟ كما أرسلت استفسارات مماثلة إلى سفيرنا في موسكو.

وأظهـرت الأسئلـة أنه ما من أحد، حتى السوفييت كان متشوقـاً إلى أن يهرع إلى جنيف. وعلى الرغم مـن أن إسماعيل فهمي طلـب من الاتحاد السوفييتي أن يعقد محادثات استكشافية حول الموضوع فإنه لم

يقتـرح تاريخاً ولا إجراءً ما. وفـي الوقت نفسه أعاد أسئلتنا إلينا مقترحـاً أن نطرح أفكاراً جديدة للعودة إلـى الشروع في المفاوضات. أما إسرائيل فقد تحول تبجحها وتظاهرها بالشجاعة من خلال مجاهرتها بالشـوق إلى العودة إلـى جنيف، أثناء مواصلة الجولة المكوكية، إلى عطالة وجمود، عندما انتهت المسألة إلى اقتراح طريقة لأداء هذا. وبدلاً من ذلك أعاد مجلس الوزراء تأكيد تفضيله الحازم لاتفاقية مؤقتة مع مصر واقترح أن نعود إلى الشروع في المفاوضات مع مصر من حيث توقفت.

أمـا الرئيسـ السوري ـ الأسد فقد قال: إنـه يحبذ العودة إلى جنيف (والتي رفض الحضور إليها في المناسبـة الوحيدة التي التقت فيها الأطراف هناك)، ولكنه أضاف إلى ذلك فقرة المَهْرَب المألوف حول الحاجة إلى تحضير متأنّ. وبدا السوفييت مترددين، ودعا غروميكو إلى مشاورات مسبقة.

وكانـت لـدى كل فريق أسبابه الخاصـة التي لا تحمله على استعجال الذهاب إلـى جنيف أما السادات فلـم يكـن يرى، في النهاية، في مؤتمر جنيف، بديلاً مفضلاً، علـى الرغم من خيبة أمله الحادّة من نواتج الجولـة المكوكية. فهناك سـوف يلتقي بسورية التي لا شك في أنها سوف تضغط من أجل تسوية شاملة. و أما الفلسطينيون فيحتمل أن يخرجوا بموعد نهائي أو بحرب أكثر مما يحتمل أن يصلوا إلى حل وسط، ولم يكـن العضو السوفييتي الشريك مـع العضو الأمريكي في رئاسة المؤتمر فـي جنيف، عنصراً مرغوباً فيه بالنسبة لمصر، وفي الشهور الأخيرة كان السادات قد وجه إلى القادة السوفييت توبيخاً ساخراً وأحرجهم فـي حـالات أكثـر تواتراً مـن أن يحسب معها حسابـاً لدعم له معنـاه. وكان الأكثر رجحانـاً أن يسدوا في وجهـه الطريق إلى مبادراتـه المنفصلة نحو إسرائيل أما ردُّ الفعل المخـادع، والمثير للاهتمام، فكان رد فعـل الاتحـاد السوفييتي. ولم يكن من شأن طاقم غروميكو القوي نهائيـاً أن تصدر عنه استجابة سريعة، وانعطافـات غير متوقعة فـي مجرى الأحداث، وكان الاشتبـاه اللاذع أكثر وروداً فـي حالة محافظته على أسلوبـه. وعندما أَعْلَنّـا، فجأة، وبعد خمسة عشر شهـراً من إعاقة التصديق بإلقـاء الخطب، استعدادنا لاستطلاع إمكانية العودة إلى مؤتمر جنيف، كان غروميكو يحاذر من الوقوع في شرك، إذ كان كل ما يعلمه هـو أن المصرييـن أُولي الحذر والحيطـة والأمريكيين المراوغين الماكرين كانـوا يتآمرون لعزل الاتحاد السوفييتي عن بقية المساندين له في المنطقة.

ولتمويه ارتباكه واختلاط الأمور عليه، اقترح الاتحاد السوفييتي في رسالتين من بريجينيف إلى فورد ومـن غروميكو إلـيَّ، مؤرختين في العاشر و الحـادي عشر من نيسان، إجراء مشـاورات سابقة على عقد مؤتمر جنيف بهدف الوصول إلى موقف أمريكي سوفييتي أساسي في المؤتمر، واقترح بريجينيف أن يكون التاريـخ المستهدف لإعادة عقد المؤتمـر في وقت ما من حزيران، ومع ذلك فلم نكد نشرع في استكشاف مـا يمكـن أن يعنيه السوفييـت بالموقف المشترك حتى واجهنـا الطقس الذي بـات الآن تقليدياً. وسألت دوبرينيـن سؤالاً شكلياً عن أية أفـكار يمكن أن يرغب الاتحاد السوفييتي فـي عرضها؟، فالتزمت موسكو

الصمت، وبعد بضعة أسابيع أجاب غروميكو حقاً، ولكن كان جوابه هو الطعم النموذجي إذ أسفر الموقف السوفييتي المنفتح الذي لم يمكن التفاوض عليه على مدى الأعوام الستة الماضية، عن كونه موقفه الوحيد: وهو عودة إسرائيل إلى حدود عام 1967 مع الضمانات الدولية. وقد قيل: إن الاتحاد السوفييتي لن ينفصل عن حلفائه المتطرفين في الشرق الأوسط ولكن لم يكن في وسعنا أن نجد مصالح يمكن تصورها في موقف مشترك في جنيف ـ أو حتى في عقد المؤتمر ـ إذ أصبح وسيلة لانتزاع تنازلات من جانب واحد من إسرائيل. و إذا كان مقدراً لمؤتمر جنيف أن تكون له أية فرصة للنجاح فلا بد للرئيسين المشتركين، اللذين يمثلان الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أن يكونا مستعدين لكي يطلب كل منهما من حلفائه تقديم تضحيات مماثلة لتضحيات الطرف الآخر.

وكان السبب الملزم إلى أقصى الحدود لتحفظ السوفييت، هو البقية الباقية من سياسة الربط: إذ كان السوفييت يتوقون إلى عقد مؤتمر الأمن الأوربي في قمة تجريبية مؤقتة في هيلسنكي في نهاية تموز، وكان القادة السوفييت يخشون من أنهم إذا تحملوا المسؤولية الأساسية في مؤتمر جنيف الذي سيعاد عقده، فسوف تصبح قمة هيلسنكي كارثة، ولكن إذا أخفقوا في دعم سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية فسوف يتآكل الوقوف السوفييتي إلى جانب ما تبقى من العرب الذين يدعمونه بدرجة أكبر.

وعلى هذا ففي الأشهر الحرجة من ضعفنا الداخلي الأقصى، بينما كانت الهند الصينية تسقط وواشنطن مقسمة والسوفييت يماطلون ويسوِّفون ويتيحون لنا الفرصة لننهض بمسؤولية عملية السلام مرة أخرى.

وعلى الرغم من أنه قد انتابنا الضعف والوهن إلى حدٍ ما من جراء الأحداث الأخيرة، فقد ظللنا الطرف الوحيد القادر على التعامل مع كل الآخرين. ولهذا لم نكن في عجلة من أمرنا. بل كنا نحسب أن التأخير سوف يؤكد عدم إمكان الاستغناء عنا وسيشجع السياسات الأكثر مجاملةً، وقد انعكس هذا في تعليماتنا إلى السفير كينيث كيتنغ في إسرائيل:

لا ينبغي لك، وأكرر: لا ينبغي لك أن تخوض في حادثة بعد أن ماتت فيما يتعلق بالسبب الذي جعل المفاوضات تصل إلى طريق مسدود أو تنشغل بمناقشةٍ لمزايا أي فكرة إسرائيلية بذاتها. وينبغي أن يكون موقفك موقف البحث عن أية أفكار جديدة يمكن أن تكون لدى الإسرائيليين، بحيث تستطيع أن تبلغ عنها واشنطن لدى عودتك. وبينما يترتب عليك أن تقول: إن حكومة الولايات المتحدة سوف تعامل أية أفكار كهذه بعقل منفتح، كما قيل علانية فأنت لم تأت بتعليمات لتضغط على الإسرائيليين وإذا طرح رابين أية أفكار جديدة فعليك أن تسأله هل هذه أفكاره الشخصية الصرفة أم هي أفكار يشعر أن مجلس الوزراء يستطيع أن يدعمها.

كانت الجملة الأخيرة تمثل إشارة إلى الهوة القائمة بين وجهات النظر التي كان رابين عبر عنها لنا في جو خصوصي وما تمخض عن مداولات مجلس وزرائه.

openikang.com

وصدرت التعليمات في 1 نيسان إلى السفير آيلتس في القاهرة للإجابة بالروح ذاتها عن سؤال فهمي عن الأفكار الأمريكية الجديدة:

بالنظر إلى اقتراح فهمي ـ وهو أن نقترح بعض الصياغات من أجله ومن أجل السادات ـ ينبغي لك أن تبلغ فهمي أنني أفضل أن أجعل هذه الفكرة في حالة تعليق مؤقت إلى أن نتمكن من الوصول إلى حكم يتعلق بالسؤال الأوسع نطاقاً حول كيفية مباشرة العمل في الظروف الراهنة، وخلال نيسان كرَّرت الأطراف مواقفها، ولكنها أدخلت تحسينات عليها أيضاً. وخاض السادات التحركات الخاصة بالإعداد للمواجهة الدبلوماسية على الأقل، على الرغم من أنه كان حريصاً على ألا يحدد مواعيد نهائية. وفي 23 نيسان التقى، هو والأسد في الرياض، وأعلنا تشكيل لجنة لتنسيق استراتيجية حيال إسرائيل لم تجتمع نهائياً، على قدر ما أستطيع أن أقرر، وزار فهمي موسكو ووقع على بيان مشترك مع غروميكو، يدعو إلى تحضيرات متأنية سابقة على عقد المؤتمر في جنيف، ويصر على إدخال منظمة التحرير الفلسطينية، مع «تمتعها بالمساواة في الحقوق مع المشاركين الآخرين». وكان فهمي أكثر حنكة ودراية بكثير من أن لا يكون عَلِم أن إسرائيل لن تحضر إذا حضرت منظمة التحرير الفلسطينية، وكان ينادي بشعارات من أجل طريق مسدود، بدلاً من الدعوة إلى العمل.

وكان الرئيس فورد، بدوره، يبدو، في اجتماعاته الصباحية اليومية معي، وكأنه يحبِّذ حلاً شاملاً، من دون أن يترجم هذا التفضيل إلى توجيه ما. إنما أباحه في مقابلة شخصية لفريق من مراسلي شبكة CBS التليفازية، في 21 نيسان، ولخص الخيارات الموجودة بين يدي السياسة الأمريكية، بما يلي:

هناك الآن ثلاثة خيارات في الواقع، ففي وسعك أن تستأنف المفاوضات المعلَّقة من دون تقديم التزام بالذهاب إلى جنيف، وفي وسعك أن تذهب إلى جنيف وتحصل على تسوية شاملة، الأمر الذي يعد مسألة بالغة التعقيد، وعلى كل حال فكثير من الناس يؤيدون هذا. ولكن حين تكون بصدد الخوض في هذه المفاوضات من أجل تسوية شاملة، يكون لديك خيار ثالث يتمثل في إمكان الوصول إلى تسوية مؤقتة متفاوض عليها بين طرفين من الأطراف مثل إسرائيل ومصر.

وهذه هي الآن، الخيارات الثلاثة، في الأساس. ولم نتخذ أي قرار(3).

أما على الجانب الإسرائيلي فقد قام آلون وآبا إيبان برحلة إلى واشنطن، وقام بها الأخير بصفته الشخصية إذ كان خلفه قد استعيض عنه بآلون عندما خلف رابين غولدا مائير قبل عام. واقترح آلون العودة إلى الشروع في المفاوضات من حيث توقفت، ولكن كان من الواضح أنه لم يكن مفوضاً باقتراح أية مواقف غير تلك التي كانت قد أدت إلى الطريق المسدود. أما إيبان فقد عمد، كشأنه دائماً إلى وضع الأمور في منظور أنيق، إذ أخرجها في صورة حكمة بارعة «أما نتيجة النجاح فلن تكون سلاماً، وأما نتيجة الإخفاق فلن تكون حرباً».

obeikandi.com

وفـي منتصـف أيار قرر فورد أن الوقت قد حـان من أجل مبادرة أمريكية، واقتـرح اللقاء مع الرئيس السـادات فـي سالزبورغ، بالنمسا فـي الأول والثاني من حزيران في إطار رحلـة أوروبية كان يخطط لها، ودعا رابين إلى واشنطن في 11ـ12 حزيران.

فورد والسادات

وفي الوقت الذي دعا فيه فورد قادة الشرق الأوسط للالتقاء به كان قد توصل إلى قرار، وكانت إعادة التقويـم قد عادت بنا إلـى أحكامنا الأصلية: وهي أن الاتفاقية المؤقتة بيـن مصر وإسرائيل تمثل المسار المرغـوب فيـه إلى أقصـى الدرجات، إذا استطعنـا أن نتابعها من دون أن نصبح ذريعـة لكل طرف فيما يتصل بالطريق المسدود في داخل بلده. وإذا لم يحقق هذا نجاحاً فسوف نعود إلى عقد مؤتمر جنيف.

وصدرت التعليمات إلى السفيرين، آيلتس في القاهرة، وكيتنغ في تل أبيب بإبلاغ الحكومات المضيفة بأن الولايات المتحدة تزمع استئناف دور وساطتها، ولكن لن يكون هذا إلا إذا استطاع قادتها في مؤتمري القمـة الوشيكيـن مع فـورد، أن يخرجوا ببعض الأفـكار الجديدة وبينمـا كانت الأطـراف ترصد الوقت، استدعيـت السفيـر آيلتس وطلبت منه أن ينقل رسالة شخصية مني إلى السادات، وقلت له: إن السادات لا ينبغـي له أن يدع نفسه يتعرض للتأجيل والتجنب مـن جراء سلوك رابين الحافل بالنقاط ذات الإشكالية. وبينمـا كان رابين في الواقع محاوراً صعب المراس، إلا أنه كان أيضاً، الزعيم الإسرائيلي الأكثر رغبة في صنع السلام.

ولما كان من الواجب أن يظل خيار إعادة عقد مؤتمر جنيف مسألة احتياطية فقد التقيت بغروميكو في فيينـا فـي 19 ـ20 أيار. وإذا كان مقدراً له أن يردَّ الاعتبار إلى الاتحاد السوفييتي بصفته لاعباً رئيسياً في دبلوماسية الشرق الأوسط في أي وقت من الأوقات فهذه فرصته. ولكن غروميكو لم يكن في صدد السماح للفرصـة الدبلوماسيـة بأن تعترض طريـق التحذلق المتصـل بالمشروعية والنواحـي الإجرائية. واقترح أن تُدِخـل الولايـات المتحدة الاتحاد السوفييتـي في كل جوانب عملية السلام في الشـرق الأوسط ـ وكان هـذا يعنـي في الحقيقة أن لا يحدث لقاء بدون مشاركة الاتحـاد السوفييتي وحث بلدينا على دعوة منظمة التحريـر الفلسطينية إلـى مؤتمر ينعقد في جنيف مرة أخرى. وكان علـى غروميكو أن يعلم أننا سنتجنب الإجابـة المباشـرة عن مقترحه الأول ونرفض مقترحه الثاني رفضاً مباشـراً وصريحاً. وفي الحقيقة فإن الجانب الوحيد الذي لا يمكن التنبؤ به من رد الفعل، كان يتمثل في الطريقة التهكمية التي صُغت بها عبارة الدعوة:

كسينجر: هل تريد رد فعلي الصادق؟

غروميكـو: هنـاك فـروق دقيقـة ممكنـة أيضـاً فيما يتعلـق بالصياغـة الممكنـة لعبـارة الدعوة.. وللفلسطينيين وجهات نظرهم الخاصة في هذا الصدد. فأنا أريد جواباً صادقاً

كسينجـر: إن رد فعلـي الصـادق هو أنك طلبت هـذا السؤال لأن سفـراءك يستطيعون عندئذ، أن يجوبـوا الشـرق الأوسط قائليـن: إن الأمريكيين رفضوا أن يقدموا دعـوة. وهكذا أتحت لكَ الفرصة.

وتبيـن أن هذا هو بالضبـط ما صدرت التعليمات إلى السفراء السوفييـت بفعله وإن كان ذلك أقرب إلـى أن يكون ثقيل الأسلـوب، أخرق، مملاً ـ وكما حدث ذلك، فقد استبقناهم بـأن أبلغنا البلدان العربية وإسرائيل بأنفسنا برد فعلنا.

وفـي هذه الأثناء كان مساندو إسرائيل في مجلس الشيوخ يفسدون المزاج في البيت الأبيض. ففي 21 أيار أي قبل الموعد المقرر لمغادرة فورد من أجل قمة الأطلسي الأولى له بأسبوع، ومن ثم من أجل التقائه بالسادات، كانت قد صدرت رسالة يحث فيها خمسة وسبعين من أعضاء هيئة مجلس الشيوخ، وفي الواقع، كان فـورد قـد أُجبر على الوقوف إلى جانب إسرائيل في المفاوضـات، وعلى الموافقة بدون قيد ولا شرط على طلباتها الاقتصادية والعسكرية:

خلال الأسابيع القليلة القادمة يتوقع الكونغرس أن يتلقى طلباتك من أجل المعونة الخارجية عن السنة الماليـة 1976. ونحـن واثقون أن توصياتك ستكون متجاوبة مع حاجـات إسرائيل العسكرية و الاقتصادية المُلحـة، ونحن نحثك علـى أن توضح كما نفعل نحن، أن الولايات المتحدة التـي تتصرف بما تمليه عليها مصالحهـا القوميـة الخاصـة، تقف بحـزم إلى جانـب إسرائيل في بحثهـا عن السلام فـي المفاوضات المستقبليـة، وأن هـذه المقدمة المنطقية تشكل الأساس لعملية إعادة التقويـم التي تجري حالياً لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

وكانت هذه الطريقة تختلف اختلافاً حاسماً عن الطريقة التي يتم التعامل بها مع الرئيس. وكان إغراء إسـاءة فهـم دماثة فورد على أنها ضعف يشكل إغراءً كبيـراً ومخاطرة دائمة. وقد قال لي: «هذا النوع من الضغـط ليـس هو الطريقة للحصول على قرارات مني، فربما كان من الممكن لهذا أن يُفزع امرءاً غيري؛ غير أنه لن يجدي معي» وبدت زيارة فورد زيارة مشؤومة عندما تعثرت قدمه وسقط عندما كان ينزل من الطائـرة وقد ضمَّن الحادث بتواضع مقـرونٍ ببعض الفكاهة الجافة أثناء إطلاعه قادة الكونغرس على ما جرى في السادس من حزيران، وكان كل هؤلاء القادة يعرفون رشاقته البدنية:

ذهبنا أولاً إلى سالزبورغ. وقد واجهت مشكلة في الوصول إلى هناك.

فبينمـا كنـت نازلاً من سلم الطائـرة، وكان المطر كأنما جـن جنونه. ممسكاً بيـد ابنتّي بإحدى يديّ وبالمظلـة باليد الأخرى تعثرت قدمي بقدم بيتـيّ وارتميت أرضاً على وجهي في المطر، وابتعدتْ هي عني بالمظلة.

تم اللقاء الأول بين فورد والسادات في الأول من حزيران على الغداء في فندق السادات، على شواطئ بحيرة فوشيل، حيث كان يواخيم فون ريبنتروب قد ابتنى منزلاً في العهد النازي ليكون قريباً من هتلر في بيرشتيسغادن، قريباً من الحدود في ألمانيا، تماماً.

وحيا السادات فورد بحرارة. ولبث الزعيمان، دقائق معدودات يسيران الهوينا على امتداد شاطئ البحيرة قبل أن يقعدا إلى مائدة معدة لستة أفراد، وكان وكيل الوزارة جو سيسكو، وأنا مع فورد، وكان في صحبة السادات فهمي وحسني مبارك. وافتتح الحوار فورد الذي كان ما يزال متألماً أشد الألم من رسالة أعضاء مجلس الشيوخ، بإصراره على أن هذه الرسالة لن تؤثر على سلوكه في مجال السياسة الخارجية.

أود أن أسجل نقطتين على وجه الخصوص. أولاهما أن أهمية الرسالة التي وقع عليها ستة وسبعون من أعضاء مجلس الشيوخ، إنما حُرِّفت إلى الحد الذي يخرجها عن تناسقها وتوازنها، وذلك أن نصف هؤلاء الأعضاء لم يقرأها، وربعهم لم يفهمها على حين كان الربع الباقي يعلم بدقة بالغة ما كان يفعله. على أن تأثير الرسالة يمكن إهماله.

ثم تحول إلى موضوع اللقاء:

لقد شعرت بخيبة أمل بالغة من جراء الموقف الذي اتخذته إسرائيل في آذار الماضي. فقد قرر الإسرائيليون أن ينطلقوا في اتجاه مختلف عما كنا نتوقع. وأريد أن أقول لكم على قدر ما تهمنا المسألة: إن الجمود والتوقف غير مقبولين. وكما تعلمون فنحن في صدد إعادة التقويم، وسيكون مما يفيدني، من أجلكم، أن تقولوا لي أين تعتقدون أننا نوجد الآن، وأن تقترحوا أي اقتراح يمكن أن يكون لديكم حول الكيفية التي نستطيع بها أن نعمل معاً في المستقبل، في سبيل السلام في الشرق الأوسط.

وكان السادات حكيماً، والحكمة سَجِّية تتجاوز حدود الذكاء. ولم يستهلك وقتاً في الحديث عن المفاوضات التي أُجهِضت، و حلَّل بدلاً من ذلك، الوضع عشية إجهاضها. وكان كل زعيم عربي آخر في الشرق الأوسط، خليقاً، عند هذه النقطة أن يدخل بعض عناصر الابتزاز، بتهديدنا بخياره السوفييتي واختار السادات المسار المعاكس لهذا على وجه الدقة، فأبلغ فورد أنه قطع العلاقات مع الاتحاد السوفييتي قطعاً لا رجعة فيه، مهما سيحدث خلال الجولة الدبلوماسية الحالية. ومنذ أن تفاوض السادات للمرة الأولى على الاتفاقية الأولى لفض الاشتباك، في كانون الثاني 1974 قال: إن السوفييت كانوا يحاولون أن يُقَلِّقلوا مركزه بقطع إمدادات الأسلحة عنه، بينما كانوا يقومون بتحديث الجيش السوري. ومضى السادات قائلاً: إنه سيتوقع، في حال انعقاد مؤتمر جنيف مرة أخرى، أن تحرجه موسكو في موضوع الإجراءات، والشروط، في صدد حضور الفلسطينيين. وبتخليه بهذه الطريقة عما كان يمكن أن يكون ورقة مساومته الرئيسية، جعل اعتماده على الولايات المتحدة بوضعه الرسم التخطيطي للفرصة المتاحة لنا:

obeikandi.com

سوف أكون مُخَيّب الأمل جداً إذا لم يمكن تحقيق شيء. سيدي الرئيس، لقد ذهبنا إلى أبعد مما ذهب إليه أي عربي في الماضي. وسيكون شعبي مخيب الأمل جداً إذا لم يمكن تحقيق شيء. وأريد أن نحقق تقدماً، و أن نصنع سلاماً كاملاً. ولا أريد أن يحققه سوى الولايات المتحدة، لا الاتحاد السوفييتي، ولا مؤتمر جنيف حيث يتبوأ الاتحاد السوفييتي مقعده.

ولم يكن نهج السادات يخلو من السخرية. فقد كان سلفه، ناصر يحاول أن يفوز عن طريق تهديد الغرب بالاتحاد السوفييتي. أما السادات فقد قلب أولويات ناصر رأساً على عقب بعرضه تحويل مصر إلى حصن رئيسي في وجه النفوذ السوفييتي في العالم العربي، وكان يدخل في المسألة عنصر ابتزاز ماكر أيضاً: وذلك أن الإخفاق كان ينطوي على خطر الكشف عن عجز، وبالتالي على خطر الكشف عن موقفنا كله في الشرق الأوسط ولمّا كان فورد لا يميل إلى إطالة النظر في سخريات التاريخ، فقد أعاد المناقشات إلى موضوع المفاوضات الحالية، وسأل السادات عن «أية نقاط رئيسية... فيما يتعلق بالقضايا النوعية من أجل الحديث فيها مع رابين... وقال: أنا أقدر اقتراحك بأنه لا بُدَّ أن يكون هناك إطار عمل للمفاوضات عما قريب، وإلا فسيترتب علينا الذهاب إلى جنيف. ويترتب على إسرائيل أن يكون لديها من الدهاء ما يكفي لرؤية هذا».

وطلب إليَّ فورد أن أوجز له العقبات الرئيسية في طريق الاتفاقية، وكانت أولى هذه العقبات مدة انتداب قوات الأمم المتحدة للفصل بين الطرفين ـ وكانت إسرائيل تطلب ثلاث سنوات على الأقل بدلاً من الستة أشهر النموذجية من أجل قوات الأمم المتحدة الموجودة، والثانية تخفيف وطأة المقاطعة العربية للمؤسسات الأمريكية التي تتعامل تجارياً مع إسرائيل والثالثة طريقة للحفاظ على بقاء محطات الرادار الإسرائيلية الواسعة التي تطل على قناة السويس من الجبال القريبة من ممرات سيناء التي أعلنت إسرائيل أنها ضرورية للحيلولة دون حدوث هجوم مفاجئ. ووعد السادات بإعطاء جوابه في اجتماع اليوم التالي.

وكان موقع تلك الجلسة هو المقر السابق للأسقف في الأيام التي كانت سالزبورغ ما تزال فيها دولة كهنوتية مستقلة. وكان ما يسمى بالمقر، وهو مبنى واسع من عصر الباروك يقع في قلب المدينة، وهو كل ما تبقى من النفوذ السياسي لسالزبورغ عندما كانت عند مفترق الطرق بين أوربا الجنوبية والغربية. وكانت صور الأساقفة ودوقات آل هابسبورج ترقب محاضر جلستنا من جدران القاعات الفخمة ذات الغازات الداكنة اللون المتولدة من تجربتها الخاصة مع تقزُّم تخطيط البشر. وفي إحدى قاعات الاستقبال الواسعة ذات السقف العالي، والمطلة على ساحة تحيط بنافورة بديعة، كان قادة مصر والولايات المتحدة يناقشون مصير الممرين المنخفضين اللذين يشطران صحراء قاحلة موحشة.

وتطرق السادات مباشرة إلى المشكلة:

أريـد أن يكون لديكم شيء تقدمونه إلى الإسرائيليين على الرغم من أنهم يحتلون بلادي وعلى الرغم من حقيقة أنهم في حالة سيكولوجية معينة، وهم مشوشو الفكر. إننا نواجه نقطة تحوُّل، ويبدو أنه ما من أحد يقدر على العمل من أجل السلام في إسرائيل. إنها حكومة ضعيفة للغاية. والعالم ينتظر النتائج وأنا أريد أن أدفع عملية السلام. أريد أن أتحرك في اتجاه اتفاقية.

وبهـذا المدخل أجاب السـادات عن كل من النقطتين اللتين أثرتهما في نهايـة اجتماع اليوم السابق، وأشار إلى أن طلب إسرائيل في التمديد لانتداب قوات الأمم المتحدة، لمدة ثلاث سنوات، يمكن أن يوقف عملية السلام، وذلك أن إسرائيل إذا تحررت من قلقها الناجم عن الضغوط العسكرية مدة ثلاث سنوات على الأقل، فلن يكون لديها باعث للنظر في إعادة ما تبقى من الأراضي المصرية.

وقال السادات: إنه قرر مع ذلك، أن يقبل الطلب، وأن يكل أمر استعادة أرض مصر إلى عملية السلام وإلى الولايات المتحدة بدلاً من الضغط العسكري، وبهذه الروح سَلَّم بأن في وسع إسرائيل أن تحافظ على محطـات إنذارها وراء خطوطها المصريـة بشرط أن يكون العاملون فيها أمريكييـن، وقال السادات وهو يلتفت إلى فهمي:

ينبغي لنا أن نجتهد في أمر اللغة المتميِّزة في مسألة السنوات الثلاث هذه، ونتحدث في مسألة الفيتو وهنـاك أيضاً مسألة محطات الإنـذار: نقترح أن يكون الأمريكيون هم العاملون في محطات الإنذار، وهذا اقتراح هام، فسوف يكون الأمريكيون شهوداً وسيكون هذا ضمانة كاملة للإسرائيليين.

وحين كانت المفاوضات تتخذ شكلاً معيناً، كان من شأن السادات أن يعطي كلمة MANNED أي مزود بالرجال: التفسير الأكثر مرونة على الإطلاق: فالعاملون الفعليون في التشغيل يمكن أن يكونوا إسرائيليين على اعتبار أن هناك حدٌّ أدنى من الإشراف الأمريكي. وفي أثناء المحادثات أظهر المصريون أيضاً بعض المرونة في مسألة المقاطعة.

وكان إسهـام السادات المحوري في عملية السـلام يتمثل في كسر دائرة سوء الظن وعدم الثقة، أكثر مما يتمثل في الشروط النوعية لأي اتفاق خصوصي، إذ كانت إسرائيل مطوَّقة بدرجة أكبر من أن تمكنها مـن القيـام بعملية تفضُّـل أو إنعام، وكانت البلدان العربيـة أضعف، وأكثر فرقـة وانقساماً. وكانت مصر وحدها هي القادرة على الارتفاع فوق سوء الظن والمرارة السائدين، لأن مصر كما يقول السادات، بالنص الحرفي، «تختلف عن العرب الآخرين فنحن لدينا خلفية من الصبر، واللطف والكياسة والتفهم».

وكان السـادات، بالطبع، شخصية أكثر تعقيداً بكثير مـن شخصية فيلسوف السلام التي عرضها في سالزبـورغ. وكان قـد أمضى، قبل كل شـيء، عمراً من الزمن، وكثيراً من السنيـن في السجن بحكم كونه ثورياً يقاتل في سبيل استقلال مصر وشرفها، وكان قد نظم هجوم المفاجأة العربي على إسرائيل قبل ما لا يكاد يبلغ العامين. ومن أجل ذلك كان من الممكن أن يكون السادات كل شيء، إلا أن يكون داعية سلام.

obeikandi.com

ولكن التجربة علمته أن مصر لن تستعيد أرضها أبداً بالوسائل العسكرية حتى مع المساعدة السوفييتية، وكان مستعداً لأن يستخلص النتيجة الواضحة. هي أن الدور المركزي للولايات المتحدة هو الطريق الواقعي الوحيد إلى التقدم الدبلوماسي، وهذه حقيقة فات معظم إخوانه العرب أن يلاحظوها.

عندما التقيت السادات أول مرة كنت أرتاب في مسألة ألا يمكن أن يكون اعتداله خطوة تكتيكية ليجندنا من أجل إعادة حدود مصر إلى وضعها السالف، ثم يستطيع بعد ذلك أن يعود ليكون في طليعة حركة القضية العربية ومن المحتمل أن يكون هو نفسه لا يدري بذلك بعد أيضاً. وفي سالزبورغ قابلنا السادات في منتصف الطريق إلى هدفه النهائي بصفته نبيَّ قضية السلام في معترك الأهواء السائدة في منطقته. وكان ما بدأ في صورة تكتيكات قد أخذ يتحول إلى هدف العمر. وفي الوقت الذي عاد فيه فورد من سالزبورغ كان قد قرر أن يدفع عملية السلام إلى الأمام، وإذا اقتضت الضرورة فليكن ذلك في مواجهة معارضة الكونغرس ولدى إطلاعه قادة الكونغرس على مجريات الأمور في 6 حزيران، وجه ضربة عنيفة في رسالة أعضاء مجلس الشيوخ.

لقد كان السادات وكل العرب قلقين للغاية من جراء الرسالة. ولقد أوضحت أن الرسالة لا تمثل معارضة رسمية في الولايات المتحدة، وأنها لا تمثل سوى وجهات نظر 76 شيخاً أعلن بعضهم فيما بعد عن اعتراضات أو توضيحات لوجهات نظرهم. وكان لهذا تأثير مزعج جداً في المحادثات. وعلى قدر ما أجد نفسي واثقاً من الموقف فنحن لا نستطيع أن نعرّض أنفسنا لمأزق، وإذا لم نبادر إلى شيء من التحرك، فستكون جنيف هي المكان الذي سنذهب إليه وليست جنيف بأفضل المنتديات. بل سيكون هناك موقف سيء للغاية، حيث يجري الاقتتال على كل شيء. غير أني أريد أن أكون صريحاً وحاسماً في هذه المسألة، إذ ستكون هي المكان الذي سنذهب إليه إذا ظللنا من دون أية حركة.

وكانت هذه رسالة كان فورد على يقين أنها ستصل إلى رابين قبل زيارته لواشنطن، بعد أيام قلائل من الآن.

فورد و رابين ـ لقاء آخر

التقى رابين بفورد، وبي، في11 و 12 حزيران، كما التقى بي على انفراد قبل كل لقاء من اللقاءات، وبعده. ولكي أتجنب حدوث سوء فهم، أطلعت رابين على النقاط التي يرجح أن يطرحها الرئيس، وكان الأهم من ذلك أنني لخصت بعد ذلك ما أعتقد أنه قد تم الاتفاق عليه. وحتى هذا لم يكن ليحول دون توبيخ آخر لأنه قد ثبت استحالة تحقيق التزام بين الأسلوبين، الأمريكي والإسرائيلي في اتخاذ القرار. لقد كان فورد، عند كل مرحلة في مركز يمكنه من اتخاذ القرارات. أما رابين فلم يكن يتمتع إلا بالقدر اليسير من حرية التصرف، ولم يكن له بد من إيضاح كل تصرف وتفسيره، مهما يكن ضئيلاً، في مجلس وزرائه، وكانت وجهات نظر فورد الخصوصية تتطابق مع وجهات نظره الرسمية: أما في حالة رابين، فكانت شقة الخلاف واسعة حقاً.

Obeikandi.com

وفي العاشر من حزيران، وهو يوم وصول رابين أوردَ مارتن كالب، على شبكة تلفاز CBS، أن رئيس الوزراء الذي خاب أمله، من جراء رفضي تأييد موقف إسرائيل من دون قيد ولا شرط، سيكون «في صدد محاولة فتح طريق مباشر إلى الرئيس فورد» واكتشف رابين بسرعة أن فورد إذا كان يتسم بأي شيء، فهو يتسم بأنه أكثر إصراراً من وزير خارجيته. وفي اليوم التالي في المكتب البيضاوي، تطرق فورد، بمجرد أن غادر المصورون القاعة، إلى موضوعه مباشرة، ومن دون أي دردشة اجتماعية تمهيدية، اندفع خائضاً في بيان مستفيض، بارعاً في الارتجال وفظاً إلى حد بعيد، وقال: إن طريقته هي أن يكون صريحاً، وأنه يحتاج إلى أن يخرج من صدره ما كان يعتمل فيه ويزعجه: أريد أن أقول لكم: إنني تحررت من الوهم، وإنني مخيَّب الأمل منزعج، وقد تحررت من الوهم في صدد النتائج التي أسفر عنها آذار الأخير، وأنا أعتقد أن إسرائيل كان في وسعها أن تكون أكثر صراحة في هذا الظرف الحرج. فقد تحررت من الوهم حيال عدم مرونة إسرائيل عند نقطة الاختبار الأخير. وأنا أتفهم مشكلاتكم السياسية فيما يتعلق بمحاولاتكم أن تكونوا أكثر صراحة وتعاوناً، ولكن لا بد لي أن أقول لكم: إنني مخيب الأمل منزعج، وقد تحررت من الوهم إزاء الموقف الذي اتخذتموه.

وبينما كان فورد منهمكاً في هذا، سجَّل شكوى قوية اللهجة من التسريب الإسرائيلي لرسالته أثناء الجولة المكوكية التي كانت أول جولة تستخدم مصطلح إعادة التقويم. وبعد إخفاق الجولة المكوكية قال: إن إعادة التقويم واجبة، ولا تمثل تهديداً لإسرائيل وإن من الضروري أن يفهم رابين فحسب، مدى جدية فورد في عدم السماح للوصول إلى مأزق أو طريق مسدود، وحين ذهب فورد إلى مدى أبعد مما ناقشناه، أنا وهو قبل الاجتماع، أو شك أن يخرج بتهديد أمريكا النهائي، بأنه قد يطرح خطته الخاصة الشاملة من أجل السلام، بما في ذلك الحدود ويقدمها علانية خلال أسابيع قلائل:

حيثما أعلنت رأيي، على الرغم من أنني لم أُصدِر أية أحكام نهائية، وأريد أن يكون تقويمكم كما لو كنت أنا على خطأ ـ أقول أعلنت عن خيار التحرك نحو جنيف في سبيل تسوية شاملة، محاولاً تحقيق سلام مع ضمانات، سلام مع كل جيراننا سوف يتضمن اتفاقاً على الحدود الآن، هذا هو المكان الذي أعلنت فيه ما أعلنت في هذه اللحظة، وسوف أقدر وجهات نظركم وتقويمكم الذي سوف يساعدني. وسوف تكون خطتي هي الإدلاء ببعض البيانات العامة في هذا الصيف، أو قبله. وعلى كل حال فأنا امرؤ لدي عقل منفتح، وسوف أقدر تقويمكم وتوصياتكم الصريحة، وسوف يكون لها تأثير لايستهان به في ما أقرر.

وأصغيت إلى هذه النقطة الأخيرة التي ارتجلها فورد ارتجالاً كاملاً مصحوباً بالخوف، إذ لم يكن هناك وجود لخطة كهذه حتى الآن، حتى ولا في شكلٍ جنينيّ. وتولتني رعدة من احتمال تحضير خطة على أساس مثل هذه الملاحظة الوجيزة، هذا فضلاً عن الاضطراب والهياج اللذين يمكن أن يسببهما تقديمها. ويضاف إلى ذلك كما لاحظنا آنفا، أن السياسة الأمريكية في تلك النقطة سوف تتجاوز خطي

الأحمر الشخصي، لا لأن فورد كان غير معقول ولا متبصّر، بل لأنني لن أكون قادراً على تحمل المسؤولية عند تنفيذها.

وحين كان رابين يعتذر عن تسرب رسالة الرئيس تجنب المزيد من الإشارات إلى الماضي، وقدم عرضاً متألقاً ومؤثراً لمعضلات إسرائيل - ولو فعل ذلك في زيارته الأولى قبل تسعة أشهر لقطع شوطاً بعيداً نحو الحيلولة دون حدوث الكثير من القسوة التي حدثت بعد ذلك (انظر النص في الحواشي) (4) وفي الحقيقة تُعدُ مقدماته المنطقية الفلسفية الأساسية، التي تسمح بتغيير في جغرافية خطوط التقسيم قابلة للتطبيق في هذه الكتابة. وأشار رابين إلى أن إسرائيل تريد السلام وأنها تعلمت، على مدى السنوات الأربع أن «القوة لن تأتي بتسوية سلمية.... وقال: ليس لنا مصلحة في الحرب ولكن عندنا اهتمام بالدفاع عن أنفسنا» ومضى رابين قائلاً: إن إسرائيل ستقيس التقدم نحو السلام على أساس ثلاثة معايير، وكانت وجهات النظر العربية والإسرائيلية على طرفي نقيض فيما يتعلق بهذه المعايير. فبينما كان العرب يعرِّفون السلام بأنه غياب الحرب، كان الإسرائيليون يعدونه مساوياً لتطبيق العلاقات والتبادل التجاري والرحلات. وكان القادة العرب يطالبون بإعادة حدود 1967 بينما كانت إسرائيل تعُد هذه الحدود غير قابلة للدفاع عنها وكان القادة العرب يطالبون بدولة فلسطينية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت ترعى الإرهاب وترفض وجود إسرائيل نفسه، أما إسرائيل فكانت ترى مثل هذه الدولة تتعارض مع أمنها: «وكما نرى المسألة فإن العودة إلى الحدود 1967 وإنشاء دولة فلسطينية يعنيان أن إسرائيل لا تستطيع البقاء» ومع تعرض بقاء إسرائيل للخطر، كان رابين أكثر توقاً من فورد إلى أن يعثر على بديل ما للحرب التي لا نهاية لها إذا كان له أن يتوق إلى أي شيء كان.

لقد استنتجنا، من خلال الكثير من عمليات التقويم الواقعية، أن هناك طريقة أخرى تعد أكثر واقعية، وهذه الطريقة تتمثل، على وجه الخصوص في حالة مصر في اتفاقية مؤقتة معها. فمصر هي المفتاح، وأنا أستعيد إلى ذهني أن مصر قررت، على مسؤوليتها الخاصة، أن توقع على اتفاقية الهدنة، وتبعها عندئذ سائر العرب. وكانت كل حرب تنشأ عن الانضمام إلى مصر كما كانت كل حرب تتوقف عندما تتوقف مصر، وكنا نأمل أن يكون من الممكن عن طريق اتفاقية مؤقتة أن تكون هناك خطوة نحو السلام لا مجرد فض اشتباك عسكري آخر.

وطبقاً لما يقول رابين فقد كانت الاتفاقية المؤقتة مع مصر تواجه إسرائيل بثلاث من المعضلات. فإذا تم التخلي عن الممرات فأين سيكون موقع خط الدفاع الإسرائيلي في سيناء وإلى متى سيظل في مكانه؟.

والمعضلة الثانية هي؛ هل ستضغط الولايات المتحدة، بعد التوصل إلى اتفاقية من أجل سيناء، على الفور من أجل خطوة أخرى في مرتفعات الجولان؟.

وأخيراً إذا تم إنجاز تسوية مؤقتة في سيناء، فما الذي سيكون عليه توقيت مؤتمر جنيف، وما هي المقترحات الجوهرية التي ستطرحها الولايات المتحدة هناك؟ وموجز القول؛ هل كان من الممكن تجنب وقوع أزمة مع واشنطن كلما انقضت شهور قلائل حول نقطة تالية ما؟ ولكل هذه الأسباب كانت إسرائيل تحتاج إلى ضمانات فيما يتعلق بديمومة الاتفاقية.

ليس هناك جدوى لإسرائيل تتحقق من خلال الذهاب إلى اتفاقية مؤقتة وخسارة واحدة ونصف من أوراقها الثلاثة، وعندئذ سنكون في موقف أضعف، لكي نصل بذلك إلى شيء إجمالي عمومي. ولماذا ينبغي لنا أن نسلم الممرات مقابل لا شيء وننهي المفاوضات من أجل تسوية شاملة خلال ستة أشهر بالانطلاق من موقف أضعف؟

وأعقب رابين عرضه المترويّ بتحليل ينطوي على دهاء مماثل لموقف إسرائيل على كل جبهاتها الأخرى، مما دفعني إلى أن أدفع بمذكرة إلى سيسكو الجالس إلى جانبي قلت فيها: «لماذا لم يثيروا كل هذا في السنة الأخيرة؟» فأعادها هذا إلي بعد أن كتب عليها كتابة بأسلوب الخربشة يقول فيها: إن رابين فضل «كسب الوقت».

على أن تأثير عرض رابين في فورد لم يزدد إلا شدةً، إذ كان ثمة إسرائيلي يشرح له بواعث قلق إسرائيل التي هي تحت مستوى الوعي بدلا من الاختلاف والتشاحن حول توريدات الأسلحة أو الخطوط النظرية في الصحراء. ذلك لأن معضلة إسرائيل كانت واقعية بما يكفي، أما الطريق المسدود فسوف يؤدي، إذا طال أجله، إلى توتر مطَّرد الزيادة، إن لم يؤد إلى الحرب، ويقوض مركز أمريكا في العالم العربي ومع الديمقراطيات الصناعية ويعزل إسرائيل بينما كانت تنزف شيئاً فشيئاً من الناحية السيكولوجية والمادية بتصعيد الأزمات وأنواع الصراع. ومع ذلك فلم يكن من شأن تجنب الطريق المسدود بسلسلة من الانسحابات تؤثر في النهاية على أمن إسرائيل، في أن يحل هذه المشكلات بل كان من شأنه أن يعقدها ويؤجلها. أما أن إسرائيل كانت لديها قضية تاريخية أفضل من قضيتها السياسية، فذلك ما يتبين من خلال حقيقة أن المعضلات ذاتها على وجه الدقة هي ما طرحت على الرئيس كلينتون من قبل رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بعد عقدين من الزمان ـ وكان الفرق الوحيد هو أن الخط المتنازع عليه تحرك من سيناء إلى قلب فلسطين، وأن العرض كان بطريقة ما أقل فلسفية وأكثر تكيفاً مع السياسة الإسرائيلية. ولم تكن المسألة اختياراً بين الأمور المطلقة، بل كانت عملية موازنة دقيقة بين الأمن الذي يتصورونه في صورة توازنٍ وأمن عسكريين بما في ذلك العنصر السياسي والنفسي. لقد شق فورد الطريق إلى قلب المسألة من المنظور الأمريكي بتصفيته وتحليله إلى جملةٍ من القرارات العملية:

إن المشكلة هي: إلى أي مدى يمكن الحفاظ على الوضع الراهن من دون حركة سياسية؟. إنه موقف متفجر فإما أن تكون لدينا تسوية مؤقتة خلال فترة قصيرة من الزمن ـ أي خلال أسبوعين أو

ثلاثة يكون فيها قدر كبير من الجولات المكوكية، ذهاباً و إياباً وسيكون من الضروري توطيد الأمور وتثبيتها، والتحرك بسرعة، مما سيعطينا فترة أخرى من الزمن: فإما أن نتحرك بهذه الطريقة، أو سيكون اختياري ـ بكل ما فيه من الأشراك والمزالق، كما تقترح أنه تحرُّك نحو تسوية شاملة. على أن الطريقة الوحيدة لتحقيق استقرار مستمر في الشرق الأوسط، وبقاء كل الأطراف راضية بدرجة معقولة، وإعطاء كل الأطراف بعض الأمل في إمكان الوصول إلى تسوية دائمة، ستتمثَّل في التحرك في هذا الاتجاه. لقد كانت أفكاركم ذات عون وجدوى. وإذا كان لنا أن نتحرك في اتجاه اتفاقية مؤقتة فسيترتب علينا أن نفعل ذلك بسرعة، وإلا فسوف نخسر ذلك الخيار، ولن يكون أمامي بديل عن الذهاب إلى تسوية شاملة.

واختتم الرئيس الاجتماع باقتراح أن نخرج، أنا ورابين، باقتراح ملموس، وعمليّ، معاً.

وعند الإفطار، في الصباح التالي، توصلنا، أنا و رابين، إلى أشكال من التوافق حول كيفية مباشرة العمل، لخصها رابين لفورد بعد ذلك على الفور ـ بأسلوب متألِّق مرة أخرى: سوف تحرك إسرائيل خط دفاعها إلى النهاية الشرقية للممرات، وسوف تطلب ضمانات بأن تبقى قوة الأمم المتحدة التي تفصل بين الجيشين المصري، والإسرائيلي في سيناء، في مكانها، ويفضل أن يكون ذلك على مدى أربعة أعوام (وكنا قد علمنا أن السادات كان مستعداً للتسليم بثلاث سنوات)، وسوف تُرَدُّ حقول النفط إلى مصر مع قطاع من الأرض يضمن الوصول إليها من دون انقطاع. وما كان رابين ليكون رابين لو لم يُرِفقِ التنازلات الإسرائيلية المقترحة بلائحة تسوّق طويلة من أجل المعونة الاقتصادية والعسكرية من الولايات المتحدة، كلاّ ولم يدع المناسبة تمر من دون طلب منح حق الفيتو على أية مقترحات يمكن أن تطرحها الولايات المتحدة، وإذا انعقد مؤتمر جنيف مرة أخرى. ولم يستطع فورد أن يوافق على اقتراح إذا تسرَّب ـ كما كان من المستيقَن أن يحدث ذلك، فسيفسد إمكانياتنا المتعلقة بدور الوساطة في العالم العربي. على أن الطريقة غير المتوقعة التي رد بها الرئيس هذه اللائحة تظهر أن السلوك الصريح المستقيم، وغير المعقد، ليس مما يتعارض مع المكر والحنكة والدهاء:

يمكن للوقت أن ينقضي بسرعة. وفي وسعنا أن نكون في موقع يمكننا من تخفيف وطأة الضغوط التي تدفع نحو خط متشدد سوف يؤثر في ظروفك وفي ديارك. وأعتقد أننا قمنا بخطوة إلى الأمام في هذه المحادثات، وأنا لست في صدد الضغط علينا إذا ما حصلنا على اتفاقية مؤقتة، ومن الممكن أن يترتب علينا أن نستخدم بعض العبارات البلاغية ولكن لا يترتب علينا أن نتابعك إلى المواقع التي هي جديرة أن تجعلك، أنت نفسك، معزولاً.

وبعبارة أخرى فإن ما كان على إسرائيل أن تكسبه في النهاية من التعاون مع الولايات المتحدة، لم يكن استثناءً من أحكامنا بل كان يتمثل في جوٍ من الثقة سوف يخفض الحدة التي سنلح بها عليهم.

صياغة مبادرة جديدة

عندما طلب إلى الفريق الإسرائيلي المفاوض، فيما بعد، أن يوافق على ما كان رابين وفورد، قد اتفقا عليه حَوَّلَ تعريف ما كان يشكل الطرف الشرقي للممرات إلى مسألة حياة أو موت. وكان كل أمريكي في ذلك الاجتماع مع رابين قد فهم العبارة فهماً حرفياً. ولكن عندما طُلِب إلى مجلس الوزراء الإسرائيلي المصادقة على القرار، عرّف الطرف الشرقي من الممرات بأنه لا يكاد يشكل خطاً إلى الشرق من أعلى نقطة من قمة الجبل. وسألت دينتس في العشرين من حزيران كيف سنشرح للسادات أن إسرائيل اقترحت في مقابل تنازلاته في سالزبورغ ـ وهي موافقته على التمديد لقوة الأمم المتحدة لمدة ثلاث سنوات، ووجود محطات الإنذار وراء الخطوط المصرية ـ التحرك ربما مسافة مئة ياردة اعتباراً من ذروة الجبل.

وقد كشف رد فعل فورد عن أن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية كانت خليقة أن تتعرض لخطر طقس عاصف إذا جعل أي طرف من الطرفين الضرورات الجيوبوليتية تابعة في أهميتها للسياسة الداخلية، وهذا تنوع ستترتب إعادة تعلمه بعد عشرين عاماً أثناء المواجهات بين كلينتون و نتنياهو. وكان الطريق الوحيد إلى الإجماع ـ وهو الطريق الذي كان ضيقاً بما يكفي مع التسليم بالفروق في الحجم والتاريخ ـ هو أن يبادر كل طرف إلى تقديم البيان الأكثر اكتمالاً وصراحة وإفصاحاً عن وجهات نظره، ثم يعمل على تسوية الخلافات. أما المناورات الكلامية التي ترتكز على تأكيدات ملتبسة أو غامضة، فهي الطريق الأوفر حظاً من اليقين للوصول إلى انفجار ـ ولا سيما بالنسبة لإسرائيل التي تعتمد كل الاعتماد على الولايات المتحدة من أجل الدعم المادي والسياسي والسيكولوجي. وأنا أنطوي على قدر كبير من التعاطف مع معضلة الأمن الإسرائيلية الأساسية، غير أن التمارين الرياضية على الكلام في صدد ما يشكل نهاية الممرات كانت أكثر تعلقاً بسياسة إسرائيل الداخلية منها بالأخطار الداخلية الموضوعية. وكانت تلعب بالأوراق الأمريكية لعباً يتخطى الحدود إلى حد بعيد.

ولم يكن هذا قطعاً، هو الطريق الملائم للتعامل مع فورد. فعندما تم إعلامه، في 15 حزيران بالكيفية التي اقترح بها الفريق الإسرائيلي المفاوض تفسير عبارة «النهاية الشرقية للممرات» أمسك فورد، بمبادرة منه على سبيل الحصر، بسماعة الهاتف، وطلب إلى رابين إعادة النظر في موقفه. على أن رابين كان ما يزال في نيويورك، لم تكن لديه وسيلة لمجادلة زملائه سوى أن يعقد اجتماعاً لمجلس الوزراء. وهو الاجتماع الذي لم يكن من الممكن أن يحدث إلاّ حين يعود هو إلى إسرائيل، وهذا وحده رفع مستوى الحرارة درجة أخرى.

ويمكن تصوير المزاج الذي كان سائداً في البيت الأبيض على أفضل وجه عن طريق تبادل لوجهات النظر حدث بيني وبين فورد في عصر ذلك اليوم:

فورد: دعني أقول: إنني مخيب الأمل جداً.

كسينجر: لا ينبغي لنا أن نقول هذا بعد.

فورد: أنت تتدبر أمرك، ولكن حين تعود المسألة إلي، فسيكون هذا ما سأقوله.

كسينجـر: لقـد كان لزامـاً علينا أن نخوض فـي المسألة ببرود ثـم ننتظر يومين أو ثلاثـة لرؤية ما سيعودون به، وإذا اقترحنا هذا الآن فلن يقبل به السادات.

فورد: أنت تتدبر أمر تلك المناورة الدبلوماسية، ولكن ليس هناك سؤال عما أشعر به أنا.

كسينجر: تلك الطريقة التي عاملونا بها أجدها مهينة، باعثة للسخط.

فـورد: إن الطريقـة الوحيدة لمعالجـة المسألة هي أن ينتابـك الجنون من أجلهـا. وإذا أردت أنت، وسيسكو أن تخففا من حدة مشاعري...

كسينجـر: نحـن لا نريد ذلك، وعلى كل حال فإنه يحسُن بي أن أوصيك بتخفيف حدة تعبيراتك على مدى يومين.

فورد: إنما أفضي إليك بما أشعر به حيال هذه المسألة.

وأجاب السادات، كما كنا قد تنبَّأنا، في الخامس والعشرين من حزيران. في رسالة إلى الرئيس وصف فيها مقترحات مجلس الوزراء الإسرائيلي بأنها «حركات بهلوانية» ووصف سلوك أمريكا بأنه «تدليل» لإسرائيل:

لقـد تجاوبـت تجاوباً إيجابياً مـع جهودكم بحيث لا تستطيعون، فيما أعتقـد، إذا ما نظرتم في موقف مصـر في آذار، في أسـوان، وبالتالي في سالزبورغ، أن تطلبوا من مصـر أن تفعل أي شيء فوق ما فعلت. ولقـد اتخـذت هذا الموقف بسبب تصميمي على العمل من أجل السـلام... السلام الحقيقي ويضاف إلى ذلـك أنني أردت أن أمُدَّ إليكم يد المساعدة في جهودكم المضنية لتحقيق الهدف ذاته. وكما تعلمون فقد أقدمت على مبادرات جريئة من دون تردد، في مواجهة كل الأخطار التي تنطوي عليها.

وكان السـادات يصـرُّ علـى أن الوقت قد حـان «لتضع الولايـات المتحدة خريطة تعكـس مقترحاتها لتتجنـب التدهور الكامل، الشديـد، في الموقف» وإذا ثبت أن هذا مستحيـل كان من الواجب عودة مؤتمر جنيف إلى الانعقاد، وتوجيه دعوة لمنظمة التحرير الفلسطينية لحضوره، وقد كنا نرفض، على نحو ثابت، طـرح خريطة أمريكية لأننا لـو فعلنا لألزمتنا بأن نفرضها على إسرائيل. ومثـل هذا التصرف كان خليقاً أن يدمـر إمكانية المزيد من المفاوضات وأن يقتضـي منا أن نفرض حلًّا عند كل مأزق تتعرض له عملية السـلام بعـد ذلك. وهذا خليـق، فيما رأيت، أن يثبت، علـى المدى الطويل، أن مما يتجـاوز حدود طاقتنا مسألة تدبيره ويتجاوز حدود مقدرة إسرائيل على البقاء.

وعلـى الرغم مـن أن فورد لم يكن مهيأً لتقديـم خريطة أمريكية، فقد أرسل، فـي 27 حزيران رسالة صريحـة إلـى حد غير مألوف، إلى رابين. وبعد أن لّخص كل أشكال سوء التفاهم السابقة بعد المحادثات

الشخصيـة مـع رئيس الوزراء ومـع آلون، طلب فـورد رسمياً أن تقـوم إسرائيل بإعادة النظـر في أحدث مواقفها، قبل 11 أيلول، وهو الموعد الذي كان مرسوماً لي لاجتماع بغروميكو. وقال فورد: إنه سيقرر، على هذا الأساس، هل يستمر في وضع الخطوط العريضة لنهج شامل أم يعيد انعقاد مؤتمر جنيف.

لقـد وصلنـا الآن، بصياغـة أحدث مواقفكم، وبجـواب الرئيس السادات، إلى نقطـة لا بد عندها من اتخاذ قرارات أساسية.

وأنـا لا أعُـدُّ الإخـلاد إلى السكون خيـاراً واقعياً، بل إنـه ينطوي على مخاطرة غيـر مقبولة من جراء التسبـب فـي حرب أخرى، والتئام شمل القوى الدولية الأخرى التـي واجهتها إسرائيل في عام 1973، وفي مطلع عام 1974. ولما كان مثل هذا الوضع خليقاً أن يعرّض للخطر المصالح الأساسية للولايات المتحدة التي يعدُّ معظمها موضع الاهتمام العميق بالنسبة لإسرائيل ـ ولا يمكن توقُّع أن تستطيع الولايات المتحدة أن توافق على نهج للعمل كهذا.

وهدد فورد، في حالة رفض إسرائيل إعادة النظر في الأمور باللجوء إلى العلانية حول تقديره الخاص لسبب وصول المفاوضات إلى طريق مسدود:

لابـد لنا أن نحتفظ بنهجنا في الخطوات التاليـة، وأن نشرح لشعبنا تقويم الإدارة لمصلحتنا القومية في هذا الصدد.

ولـم يخاطب رئيـس أمريكي، منذ عهد آيزنهاور قبـل عشرين عاماً. الحكومـة الإسرائيلية بمثل هذه الطريقة الجافة الفظة.

علـى أن هـذه الرسالة أعطت رابين السلاح الذي كان يحتاج إليه لإقناع زملائه بأن فورد كان يعني ما يقـول، حين كان يقـول لرابين وآلون ما قاله على مدى الشهور التسعـة التالية. وحين كنت في إجازة، في جزيرة سانت جون، في الكاريبي، تلقيت كلاماً يفيد أن دينتس طلب أن يراني على الفور، رؤية سرية، ومعه رسالة من رابين. ولم يكن من السهل اتخاذ الترتيبات لزيارة كهذه، لأن خليج كانيل، حيث كنت أقيم، في منـزل أحد الأصدقاء، ليـس فيه مطار، وبعد كثير من الأخذ والرد. انطلـق دينتس، مصحوباً بنائب وكيل وزارة الخارجيـة الأمريكية، لورنس إيغلبرغر، إلى سانـت توماس في طائرة جيت ستار تابعة لسلاح الجو وقد شطبت علامتها المميزة بالدهان، ومن هناك، انتقل بالقارب إلى خليج كانيل.

وكنت قد التقيت بسمحادينيتس في عام 1970، عندما كان رئيساً لمكتب غولدامائير.

وفي مطلع عام 1973، أي قبل مجرد شهور قلائل من نشوب حرب الشرق الأوسط، خلف رابين بصفته سفيراً لدى واشنطن وفشكلت السفارة الموجودة في واشنطن أهم موقع في الدبلوماسية الإسرائيلية، نظراً لاعتماد إسرائيل الاستثنائي الفائق على المعونة الأمريكية والشعور الودي الأمريكي. ولقد كان دور السفير

obeikandl.com

الإسرائيلـي خليقـاً أن يكون غير ذي شـأن نسبياً بالنظر إلـى مستوى قوة الأمة وسلطانهـا، لأن الضغوط الدبلوماسيـة العادية المتوفرة لـدى إسرائيل تصل إلى الحد الأدنى، وعلى كل حـال فالسفير الإسرائيلي يملـك سلاحاً فريداً تحت تصرفه: ألا وهـو مؤيدو إسرائيل المتحمسون، أولو العاطفة المشبوبة والتنظيم الجيـد. وهم يتمتعون بمركز يمكنهم من ممارسة ضغـوط هائلة كما تبين أثناء المناقشة الخاصة بتعديل جاكسـون فانيك. ويتمثل الخطر بالنسبة لأي سفيـر إسرائيلي في أنه سوف يكون ممزقاً موزعاً بين اتجاه إلـى هنـا واتجاه إلى هناك، من جراء التيارات المتعارضـة المتصارعة التي يتقاطع بعضها مع بعض، في أمريـكا، في كثير من الأحيان، مـن جانب الإدارة، التي يحتاج إلى شعورها الـودي من أجل الدبلوماسية، ومـن جانـب الكونغرس الذي يحتاج إلى شعوره الودي من أجل تخصيـص الأموال لأغراضها، ومن جانب المؤيدين الصاخبين الذين تتفوق حماستهم في بعض الأحيان على حكمتهم.

وكان دينتـس يمخر عباب هذا المد المعاكـس بوقاحة ساحرة كان يلطف حدتها دائماً حِسُّه الفكاهي الودود. وكان يستطيع أن يكون امرأً عديم الشفقة لا تلين قناته في متابعة أولوياته المباشرة، وكان التهديد الضمنـي من جانب جماعاتـه المنظمة يبدو مضخمـاً أو محرفاً وراء عروضـه. وكان يتعرض، فيما بعد، للنقـد، لقربـه المفرط من الإدارة الأمريكيـة، إذ كانت إسرائيل البلد الوحيد الـذي يمكن طرح مثل هذا البيان فيه، في صورة نقد لسفيره.

وكنـت أحب دينيتـس حباً هائلاً، إذ كان صادقاً مستقيماً، جديراً بالاحتـرام، وكان يقدم إلينا تقارير غيـر مزوَّقة عن المناورات الإسرائيلية في الداخل، وكنـت أنطوي على كل ثقة بأنه كان ينقل إلينا وجهات نظـره بمثـل الدقة التـي كان ينقلها إلى مجلس الـوزراء الإسرائيلي. وكانت الـروح الفكاهية عند دينيتس تنطوي على طريقة لتخفيف حدة المواجهات وكانت السمة المهنية كثيراً ما تنفذ بمبضعها إلى الصعوبات الشائكـة إلى أقصى الحـدود. أما من حيث خدمته لبلده فهو يستحق نصباً تذكارياً في إسرائيل لدوره في المساعدة في التوصل إلى إعادة تزويد القوات المسلحة في إسرائيل ـ أثناء حرب تشرين.

وعندما حطت الطائرة في خليج كانيل، في الأول من تموز، كانت الكلمات الأولى التي صدرت عن السفير الذي لا يمكن كبح جماحه قوله، «لابد أن يكون المرء من أهل الثراء العريض لكي تنازعه نفسه إلى أن يعيش الحيـاة على هـذا النحو غير المريح» (وإذا كان مضيفي قد قرأ هذه السطور فإن دينيتس لم يكن يشير إلى وسائل المعيشة الأنيقة، بل إلى حرارة منتصف الصيف). وبُعَيد ذلك أبلغني أن رابين مصمم على التحرك فـي اتجـاه اتفاق مؤقت، وعلى كل حال فإنه لما لم يكن في وسع أيٍّ من الأطراف أن يتحمل إخفاقاً آخر. فقد كان رابيـن فـي حاجة لأن يطمئن إلى وجهات النظر الدقيقة لـدى الإدارة الأمريكية حول عدد من القضايا، ومنها: كيف عرَّف فورد «نهاية الممرات» وطرق الوصول إلى حقول النفط، ومدة انتداب قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، والنوايا الأمريكية حيال سورية، وأهدافنا المرسومة في حال إعادة مؤتمر جنيف.

وكان دينتس قد حمل معه خريطة طبوغرافية. ولأول مرة، على مدى تسعة أشهر من الحوار، كشف لنا الإسرائيليـون عن خطهم المقترح وكان تحديداً شـاذاً غريباً، للنهاية الشرقية للممرات، إذ تبين أنه على ارتفـاع يبلغ 750 متراً لا يبعد عن القمة إلا قليـلاً، ورددت بأن إسرائيل في حاجة إلى أن تنسحب انسحاباً واضحـاً فـي اتجاه ما يمكن تعريفه، على نحـو قابل للتصديق، بأن النهاية الشرقيـة للممرات، وهو معيار سيكـون هناك، فـي مقابله، ارتفاع يتقاصر عن القمـة بدرجة لها دلالتها، وإذا كان علـى رابين أن يتقدم باقتـراح يتماشى مـع تلك الخطوط حتى وإن لم يكـن على مستوى سطح البحر علـى وجه الدقة «فسوف ننظر إليه نظرة متعاطفة».

ولم يكن أيٌّ من هذه القضايا قد تطلب لقاءً شخصياً وكان، على أية حال، أقل بكثير من اقتراح سري. أما ما فعله دينيتس ـ وكان يشكل السبب الرئيسيّ لزيارته ـ فكان طرح فكرة جديدة تولَّدت من أفكار وزير الدفـاع الإسرائيلـي شيمون بيريز : وهي أن توضع على الطرق المؤدية إلـى الممرات، أربع محطات إنذار مـزودة بأجهـزة إحساس حركي، يديرها أمريكيون، فـي مواقع متقدمة ولم يكن يفترض أن يكون المرء بالضـرورة. خبيـراً عسكرياً ليدرك أن الأهميـة العسكرية كانت شيئاً يمكن إهمالـه وكانت المنطقة التي تغطيهـا غير مأهولة بالسكان، وتشمل منطقة ذات تسليح محـدود تشرف عليها محطات رادار إسرائيلية فـي التـلال الواقعة خلفها، وقد أقيمـت فيها حاميات لقوات الأمـم المتحدة تدعمها طلعـات استكشافية متواترة.

وعلى كل حال، فبلغة السياسة الداخلية الإسرائيلية كانت محطات الإنذار المقترحة المزودة بأجهزة رصـد الحركة، تشيـر إلى أن بيريز، الذي كان في تلـك الأيام العضو الأكثر تشدداً فـي الفريق المفاوض الإسرائيلـي، يوشـك أن يدعم اتفاقـاً مؤقتاً. وكانت هذه طريقته في إنقاذ مـاء الوجه وفي وضع نفسه في موقـع يمكنـه من ادعاء أهليته للثقـة به لتحسين النواتج. ولم أكن في وضع يمكننـي من قبول المشروع أو ردّه، وكانت المسألة تحتاج إلى إرجاء إلى حين رجوعي إلى واشنطن.

ومثلمـا يحدث في كثيـر من الأحيان للمنـاورات السرية المتقنة، تم كشف حجـاب السرية عن زيارة دينيتس، إذ لم تتخذ احتياطات من أجل الأحداث الطارئة الأكثر وضوحاً على الإطلاق: وهي أن الطائرة ستحتـاج إلـى إعادة التزويـد بالوقود، ورفض العاملون في مطار سـان توماس، بعنـاد، أن يقبلوا بطاقة الاعتمـاد الحكوميـة لطيار يرتدي الثياب المدنية ويطير بطائرة ليس لهـا علامات، ولما اقتربنا من قادة القوات الجوية التابعين لهم كان رد فعلهم مماثلاً.

واقتضـى الأمـر توجيه نـداء إلى الضابط آمر قاعدة القـوة الجوية في بويرتوريكـو لإثبات مصداقية طائرتنـا، الأمـر الـذي أدى أيضاً إلـى كشف الغطاء عنا وفـي النهاية ما عـاد في المسألـة أي فرق على الإطلاق، إذ لم يسأل صحفيٌّ واحد عن الغرض الكامن وراء الخروج غير المألوف للقوة الجوية.

ووافـق فورد، في تلكؤ، على التصور الخاص بمحطـات الإنذار، لأنه كان يخشى، وهو على حق، من أن تخلق مشكلة رهائن أمريكيين محتملين (الأمر الذي شكَّل، بالطبع، سبباً جزئياً لرغبة بيريز فيها). على أننـا رتبنـا الأمور، من خلال عملية التفاوض علـى اتفاقية سيناء الثانية، بنجاح، مـن أجل وجود أمريكي راصـد ـــ وهو المتمثل في مهمـة دعم اتفاقية سينـاء ـ مـع وجود عاملين مدنيين وعـدد من أجهزة رصد التحرك من دون وجود بشر.

ولكي لا ندع مجالاً للمزيد من حالات سوء الفهم، التقينا، أنا ورابين، في 12 تموز، في قصر غيمنيش، الـذي كان فـي ذلـك الوقت، مقر مضافـة الولاية بالقرب من بـون، حيث كان يمكث رئيس الـوزراء بينما كان فـي زيـارة رسميـة (وكنت في أوروبا مـن أجل لقاء مع غروميكـو في اليوم السابق فـي جنيف)، ولم تكـن مضافـة الولاية في بلـد أجنبي، بالمـكان المثالي لقيام حوار سـري. فلا رابين، ولا أنـا كنا نرى أن العلاقـات الطيبة مع مضيفينا الألمان كانت تقتضـي منا أن ندع، لاحتمال التنصت، أدوات لتسجيل كلام من محادثاتنا (على الرغم من أننا كنا مستعدين استعداداً كافياً لإطلاعهم على الشروط العامة). وهكذا تمت محادثاتنا على خلفية جَلَبة مما يسمى (BABBLER) وهو جهاز إلكتروني يصدر شذرات من جمل، صممت لحجب أصواتنا أو الطغيان عليها بالتشويش. وقد كنت استخدمت هذا الجهاز أثناء زيارات سابقة لبلدان ما وراء البحار، أثناء مفاوضات فعلية. ولم تكن لدينا فكرة حول مسألة هل سيؤدي عمله بالفعل كما أعلن عنه، أم سيسُلَّم بأنه كان يجري التنصت عليه.

وفـي هـذا الموقع الغريب إلى حد مـا ـ وهـو موقع مضافة للدولة الألمانية الـذي يشوشه هذا الحديث المـزدوج مـن قبل المُبربرين بأي لغو من القـول ـ أنفقنا ـ أنا ورابين، وقتنا فـي التجوال فوق المرتفعات المتنوعـة في الممـرات، على مساحة مئة متر في مئة متر، شأن متسلقي الجبال، إذ ينطلقون على منحدر صعب على وجه الخصوص. وفي الوقت الذي كنا فيه منهمكين في هذا، كنا نتفقد أيضاً طرق الوصول إلى حقول النفط في أبورديس.

وأخيـراً عرض عليَّ دينيتس، في 18 تمـوز في واشنطن، خريطة معتمدة من قبـل الفريق الإسرائيلي المفاوض، تعكس مناقشات قصر غيمنيش. وبعد ما يقارب السنة من محاولة تجنب الموضوع، بات فريق المفاوضـات جاهـزاً لإخلاء الممرات ـ في إخراج احتفالي. وقد أثبت تعريفـه للمدخل أنه شاذ، بعيد كل البعـد عـن الكيفية التي كان الرجل غيـر المختص خليقاً أن يفهم بها المصطلح، غيـر أنه كان قريباً بما يكفـي ليمكننـي من إبلاغ دينيتس أنني سأرفع هذا التصور إلى السـادات مع توصية تحبيذية، بحكم كونه «قريباً من أفضل ما يمكن أن تفعله».

وفـي مفاوضـات الشرق الأوسط لايمكن لشـيء، أبداً، أن يعد قد وصل إلـى التسوية الكاملة. وكنا في حاجـة إلى إبعاد السوفييت عـن التدخل، والتزام الإسرائيليين بما تم الاتفاق عليه وإبعاد المصريين عن

الأفكار الأخرى.وفي هذا الوقت كانت عملية السلام في الشرق الأوسط تتبع إيقاعاً كإيقاع رقص الباليه، يكاد يكون منفصلاً كأنه مسرحية درامية يابانية من مسرحيات الكابوكي.

وكنـا كلما أردنا رفع مستـوى النشاط الدبلوماسي أو كان لدينا سبب يحملنـا على توقع الندم اتصلنا بالسوفييـت . وكنا نفعل ذلك لتعطيـل أية محاولة من جانبهم للتدخل فـي المفاوضات، وفي الوقت نفسه لنحتفـظ بخيـار إعـادة مؤتمر جنيف في حالـة الوصول إلى طريـق مسدود في اللحظـة الأخيرة في نهج الخطوة ـ خطوة.

وكان رد السوفييـت نمطيـاً، كالكليشيـه. إذ كان السوفييت كلمـا أحسوا بالانتهاء إلـى طريق مسدود فـي المفاوضـات التي تجري برعايـة أمريكا طرحوا مصطلحاتهـم الخاصة بإعادة عقـد مؤتمر جنيف، مثلمـا فعلـوا مع غروميكو في فيينا، في20 أيار، عند اقترح إصدار دعـوة إلى منظمة التحرير الفلسطينية ـ وهي أكبر الكتل المتعثرة، لإعادة عقد مؤتمر جنيف، وكلما كان التقدم يتحقق نحو اتفاقية مؤقتة، خَفَّض غروميكو مستوى مصطلحاته، في الوقت الذي كانت فيه مصطلحاتنا ترفع راياتها تبعاً لذلك.

وعندما قابلت غروميكو في جنيف، في 11 تموز، كانت الاتفاقية المؤقتة عادت لتبدو وشيكة، مما حمله علـى خفض مستوى عباراته، فما عاد يصر على دعوة منظمة التحرير الفلسطينية، مرتداً إلى فكرة ترك المسألة إلى المشاركين العرب في المؤتمر لاتخاذ ذلك القرار. ولكي نحمي أنفسنا من الطريق المسدود فـي اللحظة الأخيرة، شرعـت في استكشاف الإجـراءات اللازمة من أجل مؤتمر جنيـف. وللحيلولة دون التئام شمل مطالب الحد الأقصى من البداية، كنت أحثُّ على أن يطلب من الأطراف المشاركة في مؤتمر جنيف، الدخول في مفاوضات مباشرة لفترة مطولة، قبل أن تقحم الدول العظمى أفكارها الخاصة، سواء على نحو منفصل أم معاً ـ وكان غروميكو يوافق على ذلك. وكانت الخطوة التالية أن حاول غروميكو القيام بعمليـة ابتزاز لطيفة يسيـرة، في صورة الشعور الـودي السوفييتي المُحْتَجّ. وقـال: إن الاتحاد السوفييتي قـد أظهـر قدراً لا يستهان به مـن التحفظ بخفض مبيعاته من الأسلحة إلى الشـرق الأوسط، إذ إنه يتمتع بالمقـدرة علـى «شل» نهج عملية السلام بزيادة تدفـق الأسلحة، ورددت بتأكيد أننـا، وفقاً لتأكيداته التي كررهـا مـراراً، نعدُّ، كلانا أولاداً كبـاراً وأن الخطوات التي تتخذ من جانب واحد لـم تكن قط اختصاصاً سوفييتياً:

هذا التحفظ ليس جميلاً تسدونه إلينا، بل هو يعكس المصالح المشتركة، لأن غياب التحفظ لن يحل المشكلة، بـل سيدعنا نظل في الوضع ذاتـه، بعد حرب أخرى. لذا أعتقد أن لكلينـا مصلحة في ممارسة التحفظ.

وعندمـا بـدا كل شيء متجهاً نحو الحل، هنالـك فحسب حدث انفجار جديـد. الآن بدا رابين مقترباً مـن موافقـة مجلس الوزراء على اقتراح جديد أكثر كفاية وملاءمـة. ولقد استطعنا أن نستنتج هذا من أن

بعض زملائه في مجلس الوزراء كانوا يغطون أجنحتهم بادعاء النصر. وكانت الأخبار المتسربة من القدس تزعم أن الولايات المتحدة قد رفضت المقترحات المصرية وهي تساند وجهات النظر الإسرائيلية، ولم يكن هناك أساس من أي نوع كان لهذه التأكيدات التي كانت تبدو مصممة خصيصاً لإذلال السادات. وأصبحت الأمور أكثر توتراً وحدة على وجه الخصوص عندما أخذ الدبلوماسيون الإسرائيليون يطلعون وزراء خارجية أوروبا على رواية دقيقة للغاية عن حالة المفاوضات، ويناشدون حلفاءنا دعوة السادات إلى مرونة أعظم، وكأن مصر هي العقبة الرئيسية في طريق التقدم (وعندما احتج فهمي لدينا، واحتججنا لدى آلون قيل لنا إنه ما من نهج كهذا قد أرسل ـ وفي هذه الحالة يكون الإسرائيليون، كما لاحظ إيغلبرغر، في مواجهة مؤامرة أوروبية ذات أبعاد استثنائية حقاً ـ) وأخيراً أكدت بعض المصادر التي لم يذكر اسمها وهي مصادر رفيعة الشأن، في القدس، أنه عندما تكون كل المناورات قد انتهت وتم الفراغ منها فسوف توجد القوات المسلحة الإسرائيلية داخل الممرات.

وقد ثبت أن هذا كثير جداً بالنسبة لفورد، الذي كان ما يزال في رحلاته عشية مؤتمر هلسنكي، وفي الرابع من آب أصدر تعليماته إلي بإرسال برقية ذات لهجة لاذعة لرابين من: Ai6 Fo6ce One (طائرة الرئيس).

فقد أعطى الرئيس كلمته للمصريين، بالاستناد إلى تأكيد الإسرائيليين، بأن الخط الإسرائيلي سيكون خارج الممرات وسوف يحافظ على هذا الوعد، ولا ينبغي لرئيس الوزراء أن يسئ فهم هذا.

وكان رد فعل رابين شديد التحفظ، وكان آخر ما يريده هو الشجار على كيلو متر واحد من الممرات سيكون، على أي حال من الأحوال في منطقة الأمم المتحدة، وأقرب كثيراً إلى الخطوط الإسرائيلية منه إلى الخطوط المصرية، واقترح أن نرسل ضابطاً معاوناً موثوقاً لاجتياز الممرين مشياً مع الضباط الإسرائيليين والاتفاق معهم على تحديد معقول للمداخل. وأرسلنا صمويل هوكينسون، وهو خبير من خبراء وكالة الاستخبارات المركزية، وضابط معاون في مجلس الأمن القومي، كان قد تخصص في الشرق الأوسط للمساعدة في وضع نهاية لما كان آخذاً في التحول إلى نزاع كان منذ البدء تافهاً عبثياً. ولم يكن من الواضح ما الذي سيشير إلى الطرف الشرقي لممر الجدي، وكما روى هوكينسون، فقد كان الخط الإسرائيلي شرقي التقسيم الجغرافي، ولكنه ليس خارج ذلك الممر «مع أي مطٍّ وشدٍ للخيال» وكان الإسرائيليون على مدى أبعد، هو على وجه الدقة، خارج ما كان يجري إحياء ذكراه، وقلت، وأنا مستغرق في التفكير، وقد أجهدتني المعركة: أحسب أنه قلم حبر مغروس في الرمل، وقد أطلقوا عليه اسم تذكار باركر» واكتشفنا فيما بعد أن التذكار كان بلاطة من الحجر قد أدركها الحد الأقصى من العطب، تخلد ذكرى مهندس بريطاني أنشأ الطرق في سيناء خلال القرن الماضي. وتبين أنه حتى اللواء الجمصي الذي كان قضى معظم خدمته العسكرية في سيناء، لم يسبق له قط أن سمع بتذكار باركر، ومع ذلك فقد قدم هذا مَعْلَماً حقيقياً ملموساً كان في وسع كلا الجانبين أن يتفقوا عليه.

openkandil.com

جولة مكوكية أخرى

ومرة أخرى بدت المواقع قريبة بما يكفي للمجازفة بجولة مكوكية أخرى، اقترحنا أن تبدأ يوم الخميس في 21 آب، وكان المزاج في القدس فظيعاً، وكانت تقوم مظاهرات ضخمة ضد الولايات المتحدة ـ حليف إسرائيل الرئيسي الوحيد، في كل من القدس وتل أبيب وقبل أن أغادر هتف إلي فورد ليتمنى لي التوفيق :

فورد: الوضع مضحك، يا هنري، أنا أكره أن أبعث بك إلى هناك، وسط ذلك الجو.

كسينجر: أعتقد أن هذا يجدي إلى حد ما في هذا البلد،و يجلوا الأمور، ثم إنه يجدي في العالم العربي، إنه ظهر للعرب أننا كنا نعزز أوضاعنا. ولسوف يكون عوناً كبيراً للسادات.

فورد: فلتنتبه إلى نفسك وإلى نانسي... ولتبقَ على اتصال معي. أما أنا فليس لدي سوى أعلى ضروب الثقة بأنك ستفعل ما هو الأفضل من أجل مصالح بلادنا..

وفي أمسيتنا الأولى في القدس كان موكب سيارتنا محاطاً بحشد غاضب يحاول أن يقلب سيارتنا. وكان عدد غير قليل من الإعلانات موجهاً نحوي، أنا شخصياً: «أيها الفتى اليهودي، عُد إلى بلدك»، وهذا ما كانت إحدى الإعلانات الألطف تقوله، وكانت العبارة الأكثر إيذاءً ملاحظة يقال: إنها صدرت عن نيكسون: «لقد تركتكم هتلر، وأعرض عنكم لكي تستطيعوا أن تنجزوا المهمة».

وكان الفريق الإسرائيلي، المفاوض المؤلف من رابين وآلون و بيريز، يحرجني بهذه الأشكال من الإفراط والزيادة في الحفاوة، ويتصرف بأسلوب الكياسة والظُرف، وبأسلوب مهني طوال الوقت، وما زال أعضاؤه لا يستطيعون، حتى تسوية كثير من المبادئ، ولا أن يقاوموا الاهتمام المفرط بالتفاصيل عند كل عبارة، عندما يكون هذا لمجرد إظهار اليقظة أمام زملائهم في مجلس الوزراء. ومثلما كانت الرحلات الجانبية إلى الطائف، في المملكة العربية السعودية، والأردن، والرحلتان إلى سورية. وفي صحبة الفريق المفاوض الإسرائيلي الذي كان يدافع عن كل متر، وكأن الممرات في داخل تل أبيب، وليست أكثر من أرض تبعد مئة ميل عن الحدود الإسرائيلية .

طلبنا آخر الأمر من وكالة الاستخبارات المركزية إنشاء نموذج ثلاثي الأبعاد بحجم المنصة، لتساعدنا في مشاوراتنا، وكنا نحمله على عربة، من الحاجز إلى الحاجز الذي يليه، الأمر الذي كان يسلي إلى حد بعيد أصدقاءنا الإسرائيليين والمصريين، إن لم يكن يحدث في نفوسهم انطباعاً ما.

وفي النهاية نجحت الجولة المكوكية بالفعل على الرغم من أنها تعرضت لاستنزاف ما كان يقترن بها من الابتهاج والانتعاش الذي كان يرافق خطوات نجاح سابقة. وكانت مصر، وإسرائيل، والولايات المتحدة، كان كل هؤلاء على حد سواء، متلكئين في إعادة عقد مؤتمر جنيف، وكانوا يتناوبون الأدوار في ابتزاز كل منهم للآخر بذلك الموضوع الواحد المتفّق عليه، ومن هذا الموضوع قطَّروا اتفاقية مهدت

obeikandl.com

الطريق إلى السلام بين إسرائيل ومصر، وتم الاتفاق أخيراً من خلال ما كان يبدو أنه أقرب إلى أن يكون جلسات لا تنتهي، على المدخل لممر الجدي، ووُضِع حضور الإنذار الأمريكي في مكانه (مهمة تدعيم اتفاقية سيناء)، وتم تحويل حقول النفط في أبو رديس إلى مصر.

وعلى الرغم من أن فريق المفاوضة الإسرائيلي وافق على أن الممرات غير ذات أهمية من الوجهة الاستراتيجيّة، فقد عوّضت هذه عن انسحاب إسرائيل في اتجاه الشرق داخل الممرات بتحريك ما تبقى من خطها نحو الغرب، وإلى الشمال والجنوب فحسب، بحيث تكون الممرات، بالنتيجة محاطة بالجيش الإسرائيلي، حتى بعد أن يكون قد أخلاها (انظر الخريطة) والويل للجندي المصري الذي كان يجازف، بعد عبور منطقة الأمم المتحدة، بدخول الممرات من طرفها الغربي وعندما عرضت على السادات هذه الطريقة الأخيرة، طوَّح بيديه في الهواء، مستسلماً. على أن المد والجزر في عملية التفاوض النهائي، كشفا، في المقام الأول، عن التعارض بين عواطف اللحظة الراهنة والمصير النهائي للأمم، لقد كانت إسرائيل تُركز على تأكيدات مُلزمة من الناحية القانونية، ولقد حققت بعضاً من هذه التأكيدات، غير أنها ظفرت، قبل كل شيء، بتحول مصر نحو صلح منفرد على نحو لا رجعة فيه. وكان السادات يصر على بعض المكاسب الإقليمية الملموسة، غير أن نجاحه الرئيسي تمثل في التزام الولايات المتحدة بمعاملة مصر على أنها شريكها الرئيسي في المنطقة، وثمة طُرْفة تستحق أن يعاد سردها لأنها تظهر أن ما هو غير محتمل يستطيع في الشرق الأوسط، أن يُزَود في بعض الأحيان بالخيط التوجيهي الذي يخرج من متاهة دبلوماسية.

كان السادات قد أصر على إمكانية الوصول المصري إلى حقول النفط في أبو رديس، على الساحل الجنوبي الغربي من شبه جزيرة سيناء، من دون عائق، وكان رابين قد اتفق على هذا المبدأ مع فورد، وعلى كل حال، فحين تحولت المفاوضات إلى التفاصيل اكتشفنا أنه لم يكن هناك إلا طريق واحد يؤدي إلى أبو رديس، كانت إسرائيل أيضاً تحتاج إليه من أجل مواصلاتها الخاصة مع القاعدة الاستراتيجية في شرم الشيخ التي تحرس مدخل خليج العقبة. ولأنه لم يكن هناك سوى شريط ضيق نسبياً من الأرض بين البحر وسلسلة الجبال وراءه تماماً، كان من المستحيل إنشاء طريق ـ هذا فضلاً عن عبثيته من أجل مجرد عدد قليل من مواقع الحماية العسكرية، على أن الجولة المكوكية لم تَزد على أن عمقت المشكلة المحيرة إلى أن جئت باقتراح يائس إذ كنت أشعر، شعور المستيقن أنه سيلقى الرفض ولكنه يمكنه على الأقل، أن يتغلب على صعوبة، إلى أن يأتي امرؤٌ ما بفكرة أفضل. وكان الاقتراح هو أن يستعمل كلا الطرفين الطريق ذاته، ولكن في أيام متناوبة، مع تخصيص يوم واحد في الأسبوع لمواصلات الأمم المتحدة وكان ما أدهشني أن كلا الطرفين قبله ـ ومن دون المماحكة المألوفة. وظل الطريق يستخدم من دون حادث على هذا الأساس، على مدى أربع سنوات، إلى أن ردَّت اتفاقيات كامب دافيد كل سيناء إلى مصر ابتداءً

مـن عـام 1979. وأخيراً تم التوقيع على اتفاقيـة سيناء بالأحرف الأولى في 11أيلـول، وكان فورد مبتهجاً وكان يتمتـع بـكل الحق فـي أن يفخر بالدور الـذي لعبه وكنا قد فرغنـا تحت رعايته، مـن اتفاقية الشرق الأوسـط الأكثر أهمية ودلالة في أيام كل مـن نيكسون وفورد. وكانت مثابرة فورد وإصراره يشكلان عاملاً رئيسياً في إخراج ما بات يشكل الخطوة الحاسمة نحو اتفاقيات السلام الإسرائيلية، مع مصر أولاً، وفيما بعـد مع الأردن، وبعث، من المنتجع الرئاسي في كامـب دافيد، بماريلاند، بنداء هاتفي متلفز إلى كل من رابين والسادات، ليهنئهما على إنجازهما، وتحدث كل من الزعيمين بطريقة مميزة، غير أنهما وافقا على استمـرار البحث عن السـلام، ودعا رابين، بعناد، إلـى المفاوضات المباشرة فـي المستقبل، ليوفر على الولايات المتحدة «كثيراً من الجهد والوقت» وأضاف إلى ذلك لمسة شوق من إسرائيل إلى السلام:

إننا نأمل، حقاً، في أن يكون هذا بداية لشيء لم نجربه بعد في هذه المنطقة، ونأمل أن يشعر الجانب الآخر، المصري، بالشيء ذاته.

وتفضـل السادات بكـرم بالاقتراب من الموافقة على طلب إسرائيل المتعلـق بعدم الانحياز الرسمي : «دعونـا نخلـق جـواً جديداً... ودعونا نصـل إلى حالة عدم الانحيـاز رسمياً» ومع ضمانـات (مع إضافة التأكيد).

أمـا بقيتنا فـكان استنفاد القوى هو الشعور المهيمن لديهم، وكان هذا صحيحاً على وجه الخصوص بالنسبة لفرق المساندة التي تم إلزامها بإعادة كتابة مسودة وثائق النهائية حتى الثانية الأخيرة من اليوم الأخيـر، وسـأدع هارولد ساوندرز، العضو الأساسي في الفريق الأمريكـي، يصف الليلة الأخيرة المشوشة بعباراته الخاصة :

لقـد بات مـن الممارسات المألوفة في نهايـة كل جولة مكوكية، بالنسبـة للإسرائيليين، أن يعرضوا مقترحـات على الأمريكييـن، ليصار إلى تدوينها فـي «مذكرة اتفاق». وفي هذه الليلـة كانت المقترحات تتدرج عبر ست عشرة فقرة حول موضوعات مثل الالتزامات بالتعاطف مع حاجات إسرائيل من الإمدادات العسكريـة، وتلبيـة متطلبات إسرائيل من النفـط إذا لم تستطع إسرائيل شراء مـا تحتاجه، والتشاور إذا انتهكـت مصـر الاتفاقية، والتصويـت بالفيتو في مجلس الأمـن الدولي ضد أي إجـراء يؤثر في الاتفاقية تأثيـراً معاكسـاً، والنظر «بنظرة حادة على الخصوص إلى ما يهدد أمن إسرائيل أو سيادتها من قبل دولة عظمـى»، ووضع خطط طوارئ لإمداد إسرائيل بالإمدادات العسكرية في حال حدوث طارئ، وحتى طمأنة إسرائيل إلى أن الولايات المتحدة تعتبر ممرات معينة، مثل ممر جبل طارق، مياهاً دولية.

وابتداءً من الساعة الثامنة صباحاً كان أعضاء الفريق الإسرائيلي يأخذون أعضاءً بذاتهم من فريقنا إلى أقسام منفصلة من حجرة المؤتمر ويؤثرن في مواقفهم بالضغط و الإكراه في صدد كل فقرة واردة في المذكرة. واستمر هذا خلال الليلة كلها.

وعدنا إلى الفندق عند شروق الشمس لإعداد ثلاث نسخ أصلية من الاتفاقية للتوقيع عليها بالأحرف الأولى في وقت لاحق من ذلك اليوم. وفي هذه الأثناء كنا قد أبرقنا بالفقرات الشرطية النهائية إلى السفير هيرمن آيلتس في مصر لإرسالها إلى وزير الخارجية، فهمي الذي كان قاعداً على الشاطئ بالقرب من الإسكندرية. ثم أخذنا نتلقى مزيداً من التغيرات من كابينة فهمي. وكل هذه المقترحات كانت تعني المزيد من تبادل الاتصالات الهاتفية مع الإسرائيليين وإعادة كتابة الوثائق في عالم ليس فيه وسائل لمعالجة الكلام.

وأخيراً وقع الإسرائيليون بالأحرف الأولى (في 1 أيلول)، وطرنا عائدين إلى منزل السادات. وكان الوقت يقارب منتصف الليل عندما وقع السادات بالأحرف الأولى في حضور الفريقين المصري والأمريكي، وكانت الغرفة حارة يسبب هوائها انقباض الصدر وكان المهرب الوحيد من خلال باب فرنسي إلى الشاطئ حيث هناك الهواء الذي يساعدنا على البقاء يقظين.

وتضمنت المسألة سلسلة من الرسائل الجانبية إلى فورد من كلٍ من الموقعين مما جعل الرئيس الأمريكي يتمتع بمركز المُيَسّر البالغ الأهمية للاتفاق. ووعد السادات بأن لا ينضم إلى الحرب إذا هاجمت سورية إسرائيل، وبأن يحافظ على تناسق المواقف، وعرض رابين تأكيدات بأن إسرائيل لن تهاجم سورية. ووافق فورد على التزام بأن لا يتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية إلى أن تكون قد اعترفت بحق إسرائيل في الوجود وقبلت قرارَيْ مجلس الأمن رقم 242 و 338 (التي أمنت وقف إطلاق النار ودعت للمفاوضات بين الأطراف في نهاية حرب تشرين الأول 1973). وأشار فورد أيضاً، في رسالة إلى رابين إلى أنه سيعطي «وزناً كبيراً» في أية مفاوضات سلام نهائية، لوجهة نظر إسرائيل القائلة، إن أمنها لا يسمح بالتخلي عن مرتفعات الجولان، وأن ما ندونه بالكتابة في صدد كلٍ من منظمة التحرير والجولان لم يكن التزاماً جديداً بمقدار ما كان تقديراً رسمياً لسياسة أمريكية قائمة.

أما أن الطريق الباقي إلى السلام سيكون بعيداً عن أن يكون سهلاً، فذلك ما أصبح واضحاً على الفور عندما توقفت في طريق عودتي من الجولة المكوكية، في دمشق وعمان. إذ كان الأسد يرشح بالازدراء المشوب بالبرود الشديد حيال السادات الذي اتهمه بخيانة القضية العربية. وقال: إن سورية لن تتخذ مبادرة أخرى، وإنه إذا كان لدي اقتراح جديد فسوف يفحصه، لكن لا ينبغي لي أن أتوقع التَوّق ذاته للتخلي عن المبدأ كما جربت ذلك مع السادات: «ما فائدة الكيلومترات القلائل في الجبهة السورية الجنوبية؟ وهل ترانا نعبث أو نمزح؟» وعندما رددت، بأنه في نهاية اليوم، لن يكون له من خيار آخر سوى الخيار الذي اختاره السادات، أجاب الأسد قائلاً، ببرود: «أنتم تقومون الآن ببيع فيتنام، وسوف تتخلون عن تايوان، وسوف نكون هنا عندما ينتابكم التعب من إسرائيل».

أما رد الفعل في عمان فكان متأرجحاً. وكان حسين قد ظل، على مدى شهور، يحث على الوصول إلى اتفاقية مؤقتة أخرى، باعتبارها الأمل الوحيد للحيلولة دون نشوب الحرب في الشرق الأوسط، ومع ذلك

فعندما حدث ذلك لم يكن في وسع الملك أن يقصر في الإشارة إلى أنه ـ وهو الذي كانوا يجادلون بالقول: إنه أكثر أصدقاء أمريكا ثباتاً كان يقف وحيداً بين جيران إسرائيل وقد أخفق في تحقيق أي مكسب إقليمي أو أية منفعة أخرى بمعونة الولايات المتحدة.

واختار حسين طريقة رمزية للإعراب عن سخطه، إذ عزفت الثلة التي اصطفت في المطار النشيد الوطني الأمريكي فحسب، ولم تعزف النشيد الوطني الأردني، ولم يكن هناك استعراض للقوات، ولا أي حدث اجتماعي، سواء في القصر، أم في مقر إقامة ولي العهد، كما كان ذلك عادة لا تتغير في ليلة وصولي. وكان الملك، مجاملاً متلطفاً، كشأنه دائماً، يدير دفة الحوار، في مكتبه قبالتي على مائدة للمؤتمرات ـ وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي استقبلت فيها بهذه الطريقة بين زياراتي الكثيرة لعمّان قبل هذه وبعدها. وأنا أُضَمّن هذه الأحداث لأنقل صورة المزاج السائد ولأدع أصدقائي الأردنيين يعرفون، بعد عشرين عاماً، حقيقة أننا فهمنا النقطة التي كانوا يشيرون إليها، على الرغم من أننا لم نكن نجد فائدة في التعليق عليها في ذلك الوقت.

القادة والنتيجة

العوامل الموضوعية هي التي تقرر الإطار الذي تدار ضمنه السياسات، ولكن القادة هم الذين لا بد لهم أن يشكلوا الطينة. وخلال الأشهر التي أعقبها انهيار الهند الصينية أظهر فورد استمرار صلة أمريكا بتحملها عبء عملية السلام في الشرق الأوسط وتوجيه دفتها في اتجاه حال دون التئام القوى في الشرق الأوسط وتلاحمها مع الستراتيجية السوفييتية. وكان عدم الاشتراك في الحرب قد تمخض في الواقع عن شبكة من التطمينات، مع كون الرئيس الحاكم محور هذه التطمينات ومساندة هذه التطمينات لمكانته وسلطته، وعلى الرغم من أنه كان يواجه انتخابه الرئاسي خلال خمسة عشر شهراً فإنه لم يحجم عندما واجه قادة الشرق الأوسط أولي الاستثارة السريعة أو مجموعات الضغط في الداخل القادرة على معاقبته في المباريات الانتخابية الوشيكة. ولقد أثبت عدم إمكان الاستغناء عنه أثناء عملية ردم الهوة بين الأحزاب النزاعة إلى الشك والارتياب حين أصبح المستأمن والضامن المعنوي لتطمينات كل حزب للآخر، وكان إسهام السادات يتمثل في إقدامه على التحول الحاسم في اتجاه عدم المشاركة في الحروب الذي كان الفريق الإسرائيلي المفوض يطالب به على مدى أشهر، وحتى عندما تم إنجاز ذلك لم يجرؤ هذا على التسليم بذلك بنفسه. على أن الاتفاق وضع بالفعل عقبات طبيعية وقانونية في طريق أي تحرك هجومي مصري، غير أن دلالته الأكبر كانت تتمثل في أن مصر كانت قد انفصلت عن كل من الجبهة العربية المتحدة التي أنشئت في الرباط والاتحاد السوفييتي، ومن ثم كان السادات خليقاً إما أن يتابع تقدمه نحو السلام وإما أن يصبح ضحية للعملية التي كان قد شرع فيها. وفي النهاية أصبح كلا هذين مصيره وقدره.

جعل السادات كل محاوريه يبدون في صورة أفضل مما كانوا يستحقون ذلك في بعض الأحيان. وفي البداية اشتبه الإسرائيليون في كونه رجلاً يسعى إلى الحصول على نقاط أكثر فائدة وجدوى من أجل الحرب العربية الإسرائيلية التالية، وبعد أن كان تغلب على شبهاته الخاصة المماثلة انتهى منا أولئك الذين كانوا قد عملوا مع السادات إلى تفهم أن غرضه الحقيقي كان نقيض ذلك على وجه الدقة. لقد كان أدركه التعب من الحرب وكان يعلم أنه في حالة نشوب جولة أخرى من القتال فسوف يواجه في النهاية التحدي السياسي ذاته الذي يواجهه الآن على وجه الدقة. ولما كان السادات مقتنعاً بأن القضية إنما هي قضية سيكولوجية إلى حد بعيد، فقد ذهب إلى أمد بعيد ليخفف من وطأة شبهات إسرائيل وكان كرم نفسيته يُمَكنُ أعضاء الوفد الإسرائيلي العنيدين المشاكسين من تحقيق السلام بين كل واحد منهم وبين الآخر مثلما كانوا يحققون السلام معه بتجميع كل ما يفضله أيٌّ من المفاوضين في وثيقة نهائية. وابتلع السادات طلباتهم المتصاعدة ـ ومنها طلب التطمينات، ومحطات الإنذار والمواعيد النهائية ـ لأنه كان قامر بكل شيء.

ولما كان كل شيء قد سار في مساره قبل الاتفاق بوقت طويل، فقد كان خليقاً أن يقدم على تحرك آخر نحو السلام، يكون في هذه المرة حاسماً ونهائياً.

وكان على إسحاق رابين أن يضطلع من خلال طرق كثيرة بأصعب الأدوار. وفي هذه الصفحات وصفت الجوانب الذي اتسمت بسمة المواجهة في خطواته التكتيكية. ومع ذلك فقد كان أسلوب رابين المتأني، والكاسح في بعض الأحيان، يعكس الواقع المحوري المتمثل في أنه كان يراهن على ما هو أكثر بكثير مما يراهن عليه فورد وأنه كان أقل تحكماً في وضعه الداخلي من السادات، وكان يعكس، فوق كل شيء، مسألة أن هامش بلده في البقاء أضيق بكثير من أضيق هامش لأي من المشاركين في عملية السلام ولما كان يتعرض للهجوم العنيف المتكرر من قبل معارضته الداخلية، ويهاجم بعنف من قبل منافسيه على القيادة داخل مجلس وزرائه ويتعرض للضغوط من قبل حلفائه الأمريكيين، ليتحرك بمزيد من السرعة، فقد كان يتمسك بتصميمه على تحقيق بعض التقدم نحو السلام، لا نحو ترتيب عسكري جديد ببساطة. ولو أنه تحرك بسرعة فوق ما ينبغي له لانفرط عقد مجلس وزرائه، ولكان مما لابد منه أن تجري انتخابات جديدة. ولو أنه تحرك متمهلاً أكثر مما ينبغي لخاطر بتحالفه مع الأمريكيين.

وعلى الرغم من أن رابين كان يقرُ استراتيجيتنا في الأساس، كما أبلغني بذلك في كثير من الأحيان، فقد كان عليه أن يوازن بين وقع خطواته وقاعدته السياسية الهشة وما كان شعبه المحاصر يستطيع أن يتحمله. وفي الوقت الذي تقلد فيه زمام منصبه، كانت إسرائيل، التي فرغت لتوها من اتفاقيتي فض اشتباك خلال خمسة أشهر، تتعرض لضغوط للدخول في مفاوضتين اثنتين أخريين مع الأردن ومصر على التناوب. وعلى الرغم من أن رابين عطل استراتيجيتنا المفضلة، فقد كان على حق، من وجهة النظر الإسرائيلية، في تخفيف سرعة العملية، والبحث عن فترة توافق للتعزيز والتماسك.

كان رابيــن استراتيجياً له شأنه. وكان نهجه التدريجي يدفـع مجلس وزرائه العنيد والمشاكس وعامة شعبه الحذر المحترس إلى الاختراق الذي جعل اتفاقيات كامب دافيد في عام 1978 ممكنة. ومما يعد من مآثر رابين أنه لم يذكر لنا قط المصاعب الداخلية التي يواجهها. حاملاً على كاهليه أعباء المتخاصمين فــي مجلس وزرائه، وغضب أصدقائـه الأمريكيين في بعض المناسبات. وكانت صداقتنا الشخصية تجعل التوترات الدورية مؤلمة لكلينا. وكان مما يعني الكثير بالنسبة إليّ أن رابين وجد في قلبه ما يمكنه أن يقول لي، في «غيمنيش» عندما وفقنا بين سياستينا آخر الأمر، بعد سنة من الحدة وأشهر من إعادة التقويم :

لا يخامرنــي الشـك في أنك كنت تتبع الاستراتيجية التي أدت وظيفتهـا في عامي 1970 ـ 1971 لتأبى على العرب أي خيار عسكري وترغمهم على خيار سياسي، وقد تنشأ بيننا خلافات، غير أنني لم أكن أشك نهائياً في أنك كنت تتصرف في إطار هذه الاستراتيجية.

وكان الخـلاف بين السادات ورابيــن يعكس، قبل كل شيء، العملية التاريخية التي جاءت بهم إلى هذه النقطـة. أما السادات فقد كان الظفر بالشعور الودي الأمريكـي يمثل، بالقياس إليه، مكسباً استراتيجياً، وأمــا رابين فكان الشعور الودي الأمريكي يمثل بالقياس إليـه حقيقة تاريخية من حقائق الحياة. لقد قدم الســادات التنــازلات ليظفر بثقة أمريـكا. وكان رابين ورفاقه يعتقدون أن شعبهـم قد كتسب حقاً في دعم أمريكا من جراء معاناتهم في الهولوكوست ومن جراء نظام حكمهم الديمقراطي. وقد غيَّر السادات بيئته الاستراتيجيـة باكتسابه ثقـة أمريكا. وكان القلق ينتاب رابين من أن تكـون مكاسب السادات على حساب علاقــة إسرائيل التاريخية بالولايات المتحدة، أما السادات فكان الخطأ الواحد في المفاوضات خليقاً أن يعني انتكاسة، وأما رابين وبلده فكان الخطأ في حالتيهما يعرض بقاء إسرائيل للخطر.

وكان الزعيمـان اللـذان كانا يتقدمان رويداً، وعلى نحو لا ينقطع أبداً، نحو السلام في الرمال العقيمة والممـرات الجبلية المقفرة فـي سيناء يمضيان قدماً بغية التوجه نحو اختراقـات رئيسية أخرى أسفرت عــن معاهدتي ســلام رئيسيتين بين الإسرائيليـيــن والعرب، وسوف تكلفهما جهودهمــا حياتهما أيضاً، إذ قتل كل منهما من قبل مواطنيه المتمرسين بالحرب والعنف. وقد أثار فزع العالم الجديد الذي سيأتي به السلام.